الروح تعزف أحياناً

الروح تعزف أحياناً

مجموعة قصصية

نادية شكري

اسم الكتاب: الروح تعزف أحياناً
اسم الكاتبة: نادية شكري
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد إبراهيم
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 2069

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

لم يفت الأوان

قال متأملا : ملامحك تنطق بمصريتك..

قلت: وأفتخر...

قال : ماذا رأيت في؟

قلت: عزيزها..عزيز مصر الذي أوفى بالوعد وصدق العهد..وطمئن الأهل وأشبعهم.

قال:كيف أكون قد أشبعتك؟

قلت: غمرني أمان كان تائها عني عقودا ومن قلبه أنجبت الثقة وراهنت على تحويل أعتى الجبال لقطع صغيرة متناثرة من الحصى. وأنت ماذا رأيت بجانب مصريتي؟

قال: كونا..عالما..دوما أحببته وحلمت به أن أصير مواطناً كاملا فيه..أحلامي الخفية والظاهرة هي من قفزت أمامي فرحة تتراقص في حبور وتشير صامتة إلى صورتك...كلماتك عالمك، فنحن على نقيض

من حيث الأمكنة، فقريتى تبين بالكاد على الخارطة، وأنت من بلد البحر..طلاقتك كأمواجه، أفكارك كعمقه وكلماتك نسماته.

حبيبتي. تفرقنا أحداث أنا عرفتها وأنت قد شاركت فيها، في صنعها، رموز من البشر والتواريخ أخذت منك وأعطتك.

قلت: وأنا رغم البعد وكثير فروق، كنت أراك بداخلي، أحدثك حين أغضب ممن حولي وأعاتبك على عدم المجيئ، على التأخير يا عزيز مصر، كنت أحفظك بصدري تميمة أثق في حضورها، كالسحر ، حتى أني يوما أقسمت لنفسي أني سوف أقابلك وأراك، أبثك أوجاع "مصر" خوفها، قلقها، سأمها من كل ما حولها أيها الجميل "يوسف مصر"

قال: أحببت العالم في عينيك وبكيت، وخشيت أن تخذلني أحلامي وتعبتُ، لكن دائما كان لدي منفذا ضئيلا به نور، فقط أنا، "عزيزك" من يراه، أجلس غائبا معك نتحادث، نتحاور نتبادل القبلات ونكتب، معا كنا نكتب حروفك ظننتها أحرفي، لا أدري كيف.

قلت: فربما ما أرادته روحي وكتبته هي أشواقك أيضا، توارد أفكار.

قال: أرك كلك "فتنة"

قلت: تبالغ ولا تجعلني أبكي.

قال: ولماذا.؟

قلت: مشوار الأمس أغلبه جروح وألم حتى أني لم أجد وقتاً لأرى ملامحي.. ثوب التواضع أرتديه منذ ولدت حتى استعار لون جلدي.. أحمال كالذنب غطت هامتي سنينا..فلجأت لسلم أولوياتي، وألقيت بي، بعواطفي، ملامحي، أشواقي رغباتي..كلهم أطحت بهم بقوة في نهاية السلم وظلمته وبرودته ، جزء كبير من داخلي كان معطوبا فقط لطول التخزين.

قال: سأعوضك.. أقسم أني سوف أكون عاشقك، معشوقك، طول العمر فكوني دائما لي.

قلت: كمن كان مسجونا منذ سنين.. محروما من أغلب الأشياء الحميمات، حتى صداقاتي ليست دافئة.. كثيرة عددا أجوفا مصنوعا لكني وحيدة، مذ كنت طفلة، لم أفلح معهم لأني دائما أنتقي مهما كانت ضرائب رهاناتي..الشخص عندي حبات عقد أو سبحة، أراه ككل وفشلت في تقديم الغفران فأصبحت، وبلا ندم أحيانا، قرباناً مغلقاً

حزيناً ينخره الحس باليتم والفقد. تغزوني الوحدة فأصاحبها حيناً وتغلبني بقسوتها أحياناً ومن جوف هذا الحس الثلجي، كنت كمجنون ألمح طيف لفرح قادم يجبرني لأواصل منتظرة، لكني أبداً لم أبحث، انتظرت على أمل، أحسسته ليس وهمياً أو شبحياً مكذوباً، شبه تأكيد كان يزاورني من حين لحين يربت على كتفي يتألم لتنهداتي، عن بعد أحببتك دون معرفة بمدى إختلاف أبجدياتنا وأكتفيت بطعم الكلمات، كلماتك تكفيني زادا قلتها لك مرارا.

قال : أعشقك أكثر الآن حبيبتي.

مخاض

كادت الرأس أن تنفلت من بين السيقان التي أوهنها الألم، جثت علي ركبتيها، وأنا أعضُّ علي شفتي السفلي، وتعكزتُ علي بعض الأيدي، وعندما علا صوتي، رمقني الطبيب من حجرة الولادة، بنظرة عجوز مجربة وأشار للحكيمة : هاتيها بسرعة .

بالغرفة خمسة أسرّة، اثنان في مواجهة ثلاثة يتوسطهم حوض كبير، المشمع الأحمر الذي يفترشهم يزيد الحجرة سخونة ورائحة المواد المطهرة تملأ المكان .

نظرتُ إلي من ترقد علي السرير المقابل، وأنا أكز علي نواجذي من الألم، حين تعالي صراخ وليدها، اعتدلتُ جالسة مرة أخرى، وصوت دقات قلبي تطغي علي الزغاريد التي علت بالخارج بعد سماع كلمة: مبروك، وما لبثت أن سكنت الغرفة بعد أن أعلنت الحكيمة " بنت أمورة"

تسمرت عيني على المولودة، التي انهمكت الممرضة في تنظيفها، ولفّها في الملابس البيضاء الجديدة خلف البرافان .

أحسستُ بجسدي كله يتفتح، ينضح عرقا وعروقي تتسع وتتفتح، وحلقي كالأرض الجدبة يشققه الجفاف

- ادفعي .. الرأس في يدي

الألم يتزايد، تكاد عيناي علي الجحوظ، تحسستهما في محاولة للتيقن أن ما يسيل حولهما عرق دافيء وليس دماء

- ادفعي .. أكثر .. أكثر

لا يوجد أكثر من هذا دفعا، خراطيم من الدماء سوف تنفجر من كل مسامي، وتخيلت للحظة أن أحشائي حتما ستخرج من مسامي هي الأخرى

- ادفعي .. ادفعي ..الرأس

لا أدري كيف تنسى النساء كل هذا الألم، ليحبلن مرة ومرات .

تزايد الألم والطبيب العجوز يحشر يديه كلتاهما يحتضن الرأس

- أكثر .. ادفعي ستخنقي طفلك

دفعتُ أكثر في محاولة يائسة، وجسدي يتحول إلى كرة منتفخة لا ملامح لها، والماء ينضح أكثر، وحينما علا صوتي، باغتني الطبيب

المساعد بمنشفة صغيرة أطبق عليها بأسناني، وهو يشير بسبابته علي فمه:

- هس، ادفعي دون صراخ ... إلى الداخل .

علا صوت وليد آخر تجاورني أمه، حاولتُ الجلوس وأنا أنظر إليها، فدفعني الطبيب المساعد مستغرباً.. ألقيت بالمنشفة تتعهد إشارة يدي بعدم الصراخ، ابتسم العجوز وهو يدير يديه فدارت دوامة من الألم تلف أحشائي، دفعتُ رغما عني، فانزلقت الرأس، تشد جسد الوليد، وانهمر السائل الذي كان يحتويه بداخلي ساحبا معه كل إحساس بالألم، وجاءني صوته صارخاً، لكن شيئا قويا كان يدفعني للنوم ويسرق مني الوعي سرقة.

وأنا أيضا أريدك

سألتُ بهمس: من أنت؟

- بحار أنا ضاع سفينه منذ قرون، وظل يبكي ضياعه زاهداً، ينتظر تلك اللحظة، لحظة أن أراك أتحسس ملامحك عن قرب فقد حلمت بها طويلاً.. كل أيامى حلمت بك، أجلت فرحي إلى أن أقابلك فأفرح، فتعالي ..اقتربي لا تخشِ شيئا .

حين هممتُ أن أتحدث باغتني

- اتركي كل الأسئلة بربك ودعيني أتمعن في ملامحك الحبيبات، اتركي كل التساؤلات سيدتي وأعثري عبر سماع لغة القلب عن الإ جابات، لكن الآن دعيني أتلمس وجهك.

قال وقد تضاءل حجمي بحجم كفيه الحانية:

هناك في البلد القاحلة البعيدة، حيث وجدت، كنت أناديك، داخل صدري، أتحرق شوقاً لرؤياك حبيبتي، ومع نداءاتي طلبت منك أن تنتظرينى تماماً ها هنا، في هذا المرفأ النائي، في نفس المكان، وذات

جلستك على صوان الطوار الصخري، طلبت منك عن بعد، أن تزرعيني في قلبك أزهاراً، ونخيلاً، وحياة، ووعدتُكِ في البعد أن أجيئ إليك، بكل كنوز البحارين وشبقهم المحبوس لرؤية الشاطئ، وونس الأهل، حلمتُ بسماءٍ بلا أرض، نسكن فيها.. سماء، وهواء، وطيور، وزهور، وكهفا وحيدا صغيرا يأوينا ، أحمل معي أشواق العاشقين، وقلوب المشتاقين، فقلبي منذ سنين غائص بصدري يؤلمني، يسكن موجوعا صامتا كقتيل، ينتظر أن أمسك يدك أحتضنكِ، فيرفرف من داخل قفصه، يعلن لأول مرة عن وجوده، ونذوب معا، وأحسُّ بأنني أصبحت محسوبا بين الأحياء.. معك سيدتي سنصبح فراشتين من نور ولذلك جئتك..

- ألم تتأخر كثيرا.. انتظرتك بدوري سيدي، تملأ حياتي بطقوس وصلوات وحبور، موتا وبعثا حبا وحياة، أعيش بك وفيك كل الأعمار.

- أنت كل النساء لايشبهك أحد، أنت الآن سيدة عمري، أخفُّ الكائنات، فتعالي نجرب لغة الجسد الربانية في صمت رباني

- أنت لا تعرفني جيداً

- أطمئنك حبيبتي.. معي ستجدين صلاة وطقوس، وسأجد فيك كل الأعمار، وكل النساء.. لا يشبهك أحد، تعالى نجرب كل لغة بيننا .. بين روحينا، بين جسدينا .. نعرف كل الأبواب المغلقة من ألف عام .. سوف آخذك لمناطق لم تزوريها من قبل ، أعرف أن ماءك غزير ، وعسلك مطر، وشهدك نبع .

- حبيبي؛ من أنت.. لتعدني بثمار ناضجة فواحة، وورود تخرج عبر مسامي..؟ .. من أنت.. لتصر بأن تتضوع حتى رمال الأرض برائحة الجنه؟ تُسْمعني كلماتٍ حلوة في العشق .. تكفي الفائت والحاضر من كل سنيني وتعوضني..؟

من أنت..؟ أخبرني.. لا تمل عيناك من أن تتأملني، تتحسس روحي عن بعد بتمعن، تتأمل قسمات جسدي، فأسمع صوت نداء القلب الصاخب يعلنها: أنا أيضا أريدك..

- أعرفك، أعرف مغاليق قفلك ولغته ورموزه، مفاتيح جسدك المغلق من ألف عام، ينتظر قدومي إليه، جنيّة بحرٍ أنتِ؛ سحرتنى منذ سنين، من قلب المحار القاسي كنت أطل في عينيك وأنتظر اللقاء.

- حبيبي.. دقات صادحة الآن، صادرة عن قلب يحلم.. يحلم أن نكون معا.. أتصور أني أبعث، أنثى لم يعرفها رجل من قبل، مخبوئة مدفونة مثل كنز البحار.. دقات صاخبة مسموعة تصدر عن قلبي الأن ..تبشرني بحياتين، بعمريْن، لا وجود فيهما للمنافي.

- أعرف أنك أنثاي، كانت مخبؤة لي، مكتوبة لي، أعرف أن ماءك غزير فياض، وعسلك مطر يروي قحطي وصبري، وشهدك نبع، أعدك بثمار ناضجة فواحة، وورود تخرج عبر مسامك تضوع برائحتك حتى رمال الأرض، رائحة الجنة.

- كلماتك هي عشقا بذاته يا من أنتظرته طويلا، تكفيني كلماتك زادًا، للباقي والفائت من عمري وتعوضني، لا تمل عينيك من أن تتأملني.. تتحسس روحي بتمعن، تتأمل قسمات جسدا ، مشتاق

للفرح.. فاسمع معي نداء قلبي الصاخب، يعلنها في خشوع متصوف "أنا أيضا أريدك".

- سأنثر كل نجوم الليل تحوم حولك، بنورها تؤنسك، وتغمرنا بنورها، أغرقك بنور حبي ..

- فدعني إذن أمسح دمعاتك حين كنت غريقا ووحيدا ومنتظرا، سأمحو عن روحك طعم المنفى الذي أقامت فيه روحك سنينا سأرجع معك وبك ولأجلك سن اللهو، لن يردعنا شيئا. أحسست بقدومك فأتيت، وكنت أتزيَّن على غير عاداتي ، أتمعَّن في ملامح وجعي.. يفاجئني التبسم؛ تبسم الروح . وساءلت نفسي" هل سيأتيني يوما؟" لنتأهب لحلبة رقص صاخب مدووش، هل يتشبع أنفي المحروم بروائحك فأغافلني وأتوه؟.. وتسري رعدتك بداخل روحي وأروح.

- ستكون كل مغاراتي محفوفة بالضوء لأجلك.

- لا تجزع من ظلمة ماضٍ قد أسرك وتعالى، تبنِّ عنواني

- لا تعبأي فالحب نور- والنور يذيب الظلمة، ويمحو صدأ الأيام

- قد نمكث يوما أو دهرا، حتى تتنزَّل قصتنا سورا وآيات، والروح فيها، وصور قلبينا تصير وحيًا، لكل من مل تصوف الأيام، وزهد اعتيادية الأشياء...

- الآن عرفت أن لدقة قلبينا نداء ومعان وغواية، وأوامر بالصلوات فتوضأ وتعالى، ففراشة قلبي تنتظر النور.

الحكيم وأنا

لم أتردد لحظة، وذهبت إليه مصممة على تسجيل حديثي معه، احترت فقط فيما سوف ابتاعه له كهدية رمزية تذكره بلقائي، وتحفزه للتواصل معي، فقررت شراء بعض الوردات متنوعة الألوان، لملمها البائع في صحبة رقيقة، وطرقت بابه وأنا سعيدة، يدق قلبي.

فتح بابه: أهلا أهلا..

ولمَّا لمح باقة الورد، قال:

" ياستي متشكرين، جميلة قوي، حطيها من فضلك في الزهرية الزرقا دى.." وجلس.

وضعتُ الورد كما أشار علي، وجلست قبالته، قلت:

- " مش حاعطلك كتير يافنان.."

بادرنى بالإجابة مازحا:

- " لأ أنا مفضيلك نفسي، أما أشوف أخرتها معاك."

ضحكتُ، فعلّق: " ضحكتك اسكندراني زيك، شبه البحر."

أومأتُ برأسي أشكره.

قال وهو يعشّق كفيه معا:

" ها عايزه تسألي في إيه؟ "

- في رواية"راقصة المعبد"، وفي المقدمة تحديدا، كتبتَ إهداءً إلى الأسطى حميدة، وقلت أنها أول من علمك الفن.. احكِ لى عن تلك الـ "حميدة" من فضلك، وعلى فكرة، في صفحة ٦٦ قلتَ إن الكون كله رقص، فاكر طبعا..

- آه طبعا..كنت قاعد بين جميلتين وشيخ.. ماتفهميش ليه، والقعدة طولت ياما، ونسيت آكل، وبدأت عصافير بطني تصوصو

قاطعته:

- أيوه.. بس استمتاعك بالنظر للجمال، جعلك تغرق عصافيرك بعصارة معدتك، ياحرام..

ابتسم وقال

- انتى عايزه ايه يابنوتة؟

ضحكتُ .. وقلت: حتى لما اتكلمت عن المجموعة الشمسية قلت أن دورانها الأبدي ليس إلا رقصة باليه.. الله عليك بجد يعنى

باختصار عايزاك تعترف بحبك للرقص.. رقص الأسطى حميدة، أو رقص الباليه..

وتابعت وسط اندهاشةٍ مرتاحة ملأت ملامحه:

- بصراحة عايزه أرقص معاك..

تقدمتُ نحوه، وأمسكته من ذراعيه، وبدأتْ خطواتي في الانتظام، تحرر هو من خجله تدريجيا، ثم بدأ يحاوط خصري بكفين متوترتين.. قال ضاحكا: بس انتى اطول منى يابنوتة..

وضحك بصوت عالٍ، وكأنه غير مصدق حالته، وتلك التي تراقصه وفي بيته.

خلى بالك"قلت" هتحكى لي عن ناتالي، وعن حمار الحكيم.. قال بعد شرود لبرهة: لو تعرفي إن الرقص هو الحياة، كنتى بقيتى سعيدة، واختفت هالات السواد حول عينك.

قلت: نعم أعرف، وحين يكون الفن حياة، تصبح الحياة فنا. قال: الفن يباعد بينك وبين الوجود أصلا، يحررك، يجعل منك شخصا

مختلفا، أعني مشكلة الوجود إنه يرفض الموت ويستغربه أحيانا كثيرة، رغم أنه حقيقة ثابتة.

قلت: نعم أحيانا ، بعد حدث مؤلم يتسع القلب، وتتزايد قدرته على الإحتواء.

قال: نعم .. من الألم نستكشف الكثير، عبر تجاربنا القاسية.

توقفنا عن الرقص، شكرني ، وجلسنا..

قال: القدرة على الاكتشاف أو الكشف، ليست شيئا مباحا للجميع ياصغيرتي، أو مجانيا لكل البشر ، فهناك من لم يتعلم من الألم سوى النسيان، فنجده يكرر بواعث ألمه بغباء، لا يستحق منا الشفقة. وأضاف: توجد قوى كثيرة جدا في الانسان، وفي الكون وفي المجتمع..كلهم متواجدين، لا تطغى واحدة على أخرى.. الكون منظّم ومنضبط بدرجة ما، ومع ذلك ينجح في استيعاب الفوضى. قلت: نعود للموسيقى.

وقبل أن أسأله قال: الموسيقى هي أدب الأذن، وأعرف أن صوتك جميل، وأذنك مؤدبة، العصفورة فتنت لي عليكي.

ضحكتُ من مباغتته لي بتلك الجملة، وطلب منى أن أختار غنوة لأغنيها.

قال: تستغربي من كلماتي.. الفنون لابد أن تكون مسمدة، ومزروعة حولنا في كل مكان.

قلت: تخيل منذ مدة ليست بالقصيرة، أحسُّ أني مثقلةـ وتتجعد كلماتي أمامي، ويطلُ هذياني أحيانا، عله بصخبه يساعدنى على الفهم .

قال: كلنا أحيانا نكون على مشارف الغرق.. نعم، وكأن على رؤسنا حطَّ الطير.

قلت: "احك لي عن موضوع الحمار، وبلاش زوغان "

قال: وبعدها ستغني ؟ ماشي.. الغناء فرح الروح، ولعلمك من لم يستطع الغناء يقف في ظلال مقبرته.

هتفتُ قائلة: كلماتك وفلسفتك تشرع كوة القلب.

قال: الناس الجيدون يبحثون عن فتات صدق، بين حنايا الكلمات كومضة البرق، وكما قال جلال الدين الرومي ؛ البرق وإن بدا نورا قد يخطف البصر.

قلت : ماذا عن العشق أستاذي؟ حدثني عنه، كي ألمح بصيص نور، و قد أصادفه يوما.. أعشق العشق لذاته.. ارتشف رغباتي الكثيرات العادلة في صمت وقلة حيلة، و أحيانا أراها آثاما بيضاء.. كيف هو سيدى؟

قال: لن أخبرك، عليك البحث عنه، وسوف تجدينه بنفسك. أما عن حماري .. كنت يوما في طريقي إلى صالون الحلاقة بتاع صاحبي، الخواجة "يني" ، وقبل ما ألف عشان أدخل المحل، سمعت شخصا، ينادي بصوت عالي"الجحش ب خمسين صاغ"..أخذ يكرر كلامه مرات، وأنا واقف مبتسم في وسط اللمه، ماتفهميش الراجل فهم لغة وشى إزاي، ترك كل الناس ، ووسع لنفسه من وسط الزحمة، وجاء لحدى يسلمني مقود الحمار، مسكته مدهوشا وقلت: امسك ياعم إنت، أروح بيه فين. ردَّ: حتاخده، شكلك طيب، وحتحبه، وتعطف عليه. أُجبرني، الله يجبرك يافندي... وقررت أن يتغلب إصراري على إصراره، فألقيت بالمقود، ومشيت مدعيا تبرمي من الثمن، وبعد عدة خطوات قلت له: تلاتين ساغ يبقى كويس ودخلت

للخواجة " يني" الحلاق، ولما خلصت حلاقة، وتقريبا يادوب بأمسك عصاي، وحاخرج من المحل لقيت الراجل بتاع الجحش كان فتش المكان كله بيدور عليا أو على الثلاثين صاغ.. لغاية ما لمحني و عرف مكاني، لقيته واقف لي على الباب يقهقه، مد إيده وقالي"حلال عليك ياأفندي هات التلاتين صاغ، احترت وبقيت في نصف هدومي، لقيتني في صراع نفسي داخلي.. صراع نفسي وقتي، بين أطلع راجل كداب والبياع حالته تقطع القلب وماصدق ياعيني يلقى زبون، وبين حاروح فين بالجحش.. لكن ثواني مرت، ولقيتني بأطلع الفلوس من جيبي، ومسكت الجحش من حبله، ومشيت.. وحمدت ربنا إن الليل كان وصل أي والله بس كنت عرقي مرقي.

سألته:أخذته على فين؟

أجاب: كلمت واحد من أصدقائي، جاني بس بعد أكتر من ساعتين وأنا طول الوقت ده محتاس مش عارف أعمل للجحش إيه، كان بينهق قلت يبقى جعان، جبت له لبن، و أدلق اللبن قدام الجحش

يبص لي وينهق، مع أني مابأشربش اللبن ، وطلبته له مخصوص برضو، ماشربش.

لغايه ما صديقي الله يمسيه بكل خير وصل وأخده معاه للعزبه ملكه بس خلي بالك المؤلفين والكتاب غالبا بيكونوا على باب الله، ماديا أقصد، وحياتك قدام الهدية دي عزمني ييجي خمسين مرة على حس الجحش، ومع كل وجبة أدعي للجحش وصاحبه في سري..

كنت أرقب ملامحه وانصت لضحكاته وبساطته وصدق مشاعره وكلماته لكنى وجدته يقرب معصمه من عينه، يرى الساعة قلت :

"لم تقل شيئا عن الرقص"ولا عن حميدة خلي بالك

قال: بس رقصت معاك وده كفايه.. غنى انت بقى الدور عليك

اخترتُ إحدى أغنيات سيد درويش، وغنيتها ، ثم ضحكتُ لطريقته المحببة المراوغة في الإجابه عما لا يريد الخوض فيه.

اترك تلك النافذة.. مشرعة

حين أيقظَ فيّ الشوقَ وألهمه، أغراه بالتسيّد، مُغيَّبة أو أكاد، تصارعني أسئلة وإجابات، دوائر حيرى أدور في تجاويفها، ولا أرى لها بداية أو نهايات.

يتدحرج حلمي أمامي بعد أن كان مستمسكا بأصابعي، أرقبه صريعا لا محالة، يسيل دمه، ويريد مني إجابةً، قبل رحيله أخبرته: نعم أتوق من دهور لأن تجمعني حالة عشقٍ بمن تتشابه مشاعره معي.. عاشق مثلي، روح وحياة تخلقني مرة أخرى، وأعود طفلة ثانية، يجيد البوح.. موهوب.كيف لا يكون ثاقب الرؤية، ليرى ويستشعر ما يجيش بداخلي، يعرف لغةَ الروح، وحبَّ النور الذي ترتمي عواطفي على شاطئيه، في محاولة لدخول الجنة؛ جنة عشق صادق.

دون أن ينطق لساني؛ تخبره التماعةُ عيني، عمّا أريد البوح به يحتضن شغفي وجنوني وعنفواني، في جنونه.

تتناغم رقصاتنا على قيثارة الشوق، فتتعانق رغباتنا العتيقات. إلهًا؛ أردته.. تدفعه خبرته في خلقي أن يحاوطني بين ذراعين وجفنين، فأستلقى على شطآن أمانٍ، ولا أرى غيرنا، ونغيب..

نركب أعتى الموجات الجامحات، في جنة بوحٍ مزدوجة.. نصنع لغة أخرى ومفرداتٍ، كانت من قبل مخفية.

وحين تتسلق الشمس ظهرينا في حنوٍّ، وقت وداعها، تدعو لنا ، أن تصطحبنا البركة وطول البقاء، وهي تسلمنا لمد القمر وجزره. تموت مخاوفنا في لحن غير معروف ننشر بصماتنا على جدران الصمت الوردي لا نلحظ أى قبح أو نشاز، لكنى لم أجدك .

حينها.. رأيت انتصار الروح يغرد من حولي، توكأت على فرحي الموهوم، تسوقني مخيلتي بما بها من توق وأشواق، لكن سرادق رغباتي كان منصوبا دون إشعار مسبق، حبي كان هشا كأجنحة فراشة برية.. هشا وغريبا ..كيف لاح لي عبر كلماتك، قارب نجاة ، أو قطعة لدنة أرسلت إلي كي لا يصيبني الغرق..؟!

وصلتني اكتشافاتي القاتلة سيدي، الحب خطير ومخيف ورقيق بل وسارق، فدفعت دفعا إلى الهرب والنجاة من شرنقة حب خانقة تجيد القتل، فالتعافي من الحب بالكشف والنور بات شيئا شحيحا سيدي، لكني عثرت على توازني، نعم وجدته قابعا أسيرا لفيض كلمة أو موعد أو حتى اتصال، ففككتُ أسره أنا حين رجعت لنفسي، وأحببتها كي أستطيع رؤية أعماقك، ومشاعر الكذب المجدول بصنعة الصدق، اكتفيت بفرحة العثور على نفسي، على أرض كذبك وادعاءاتك وتحت سماوات مضللة، لا يعرف المرء صفاءها من كدرها ونذر بالمطر أم مجرد سحابات ضاجرة معكرة المزاج.

وصلتني كل رسائلك الوهمية حين أدركت عبرها، أن الحب هو عامود خيمة توازني.. فأحببت نفسي، وأحببت خيمتي، فاترك نافذتك مشرعة رغم كل شيء، قد يدفعني الشوق لك يوما.

الذبيحة

لم يكن عقلها يستوعب تلك الكلمات في سنها الصغيرة.. هزيمة يونيو ثم بعد قليل "التنحي، سمعتْ والدها يهمس باكيا لأمها، "كسر ضهر"..

أنهت لتوها محاولة كتابة روايتها الأولى، في انتظار من سيقرأها. ركبها حزن الكبار وقلقهم، وتشاركت معهم - دون إرادة- نفس الإحساس الغريب عليها بالهزيمة، لم تفهم معنى كسرة الظهر ، ولا حزن الجيران على من فقدوهم في صحراء سيناء

" كل من حولى حزين..؟"

رافقت والدها وأمها، في مشوارهم بسيارة " الشركة" التي امتلأت بعمال وعاملات المصنع، وقاطني نفس المنطقة السكنيه الخاصة بالشركة، كانت تردد معهم في البدايه نفس الشعار

"عد ياجمال"،"عد ياجمال"، ثم بعد قليل أخذتها الحماسة، وظلت تهتف حتى نزل الجميع الى "ميدان المحافظة " في أسوان البلد:

"عد ياجمال"

أحست أن هتافهم وأصواتهم التي بحت لشدة الإنفعال، سوف تعيد ثانية الزعيم، بل وسوف تتغير نتيجة الحرب أيضا ، ويمحو كلمة"نكسة" .

كان غريبا عليها ذلك التناقض الحاصل، بين الشعور المر بالهزيمة، وبين ذلك العرس التي تراه حول ديوان محافظة " أسوان". يهتفون للزعيم القائد رافعين صوره، في كل مكان، يناشدونه العوده عن "التنحي".

لكنها فجأة ابتسمت، ومشت كالمسحورة ناحية عم "آدم" بائع الفول السوداني الذي اعتادت رؤيته، والشراء منه كل صباح على باب مدرستها، كما رأت "عنبر" بائع العرقسوس والناس من حوله تطفئ حر يونيو. اقتربت منها " أم عزيز" التي كانت تراها دائما بعد أداء صلاة الجمعة / حيث يلتقي الرجال والأبناء ينظفون ويزينون المكان حول العمارة المجاورة، وعند المساء يحضرون ماكينة العرض، ونستمتع بالأفلام العربية، التي تعرض بدور السينما بالعاصمة، والمدن الأخرى،

منها أفلام عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، وغيرها. كان هذا انجازا أسبوعيا نحلم به بقية الأسبوع، وننتظره كبارا وصغارا، بينما تدور أكواب الشاي على الجالسين فوق "النجيل" الأخضر، وقطع "الكيك والبسكويت البيتي تجهزه الجارات كما أمها، وتجده يملأ أيدى الصغار، فلا تجعلهم هذه الفرجة الأسبوعية يحسون بأنهم غرباء في مدينةٍ نائية محرومة من الخدمات.

عاد الجميع الى بيوتهم، وعند المساء سمعتْ دقات على الباب، ظنته والدها، الذي كان لايزال يقف يتشاور مع الرجال بالخارج، وحين فتحت رأت خالها الأصغر الذى يعمل مع والدها في نفس الشركة .

كانت حيرتها قائمة لا تزال تسكنها:من سيقرأ روايتي؟

قالت في نفسها أخيرا ظهر لي قارئ..

ولاحظت انتهازيتها، تجسدت أمامها في تحد، فهي لا تحبه لصوته الأجش العالي، وضحكاته الهمجية دون سبب واضح والتي تشبه النهيق بلا مبالغة، وبسببه كانت لا تحب الممثل "شكري سرحان" لأن

ذلك الخال كان يقلده حتى في قصة شعره، ويكثر دهن الفازلين، ويجعل ياقته دائما زيتيه متسخة، بالاضافة لاعتياده رحرحة قميصه من الجانبين مثله، حتى أن غروره المستعار من تشبهه بذلك الفنان، جعله يُقْدم مرات عديدة لخطبة الفتيات، ولأنه كان صغيرا " ويفتقد الجدية " وعديم الامكانات التي تؤهله للزواج،كانوا يرفضونه وكانت حين تعلم تفرح فيه، وتغضب منها أمها لأجله.

لكنها مضطرة الآن لدعوته للقراءة، فهي أكبر الأبناء الثمانية، ولا معرفة للأم بالقراءة والأب دائم الإنشغال ..

بعد تبادل السلام وصلها حواره مع أمها المتعبه، والتي كانت توضب الدولاب فهو قادم من عند "محمـدين" الجزار، وانتظر اكثر من ساعتين حتى انهى الذبح وفاز هو بالكبد.. كبد الخروف، ويريد طهيه. تحينت هي الفرصة وعرضت عليه تبادل الخدمات؛ هو يقرأ روايتها وهي تقوم بطهي الكبد.. هلَّل بصوته الجلف وضحكاته الهيستيرية ووافق:

" اتفقنا ياقمر"

راحت نحو المطبخ وهي متخوفة، وتلعن تسرعها في قبول عرض تلك المقايضة، لكنها انهمكت تسرع في الطهي، حتى تنتهي من تأنيب نفسها.

الصيف قائظ حتى في الليل "انه يونيو" هكذا تطمئن نفسها، وهي ترى مسامات ملحية، تنز من جدران المطبخ المغلق، تحاشيا لتيار الهواء الساخن، تحتار في فهم شدة الحرارة من الجو عن تلك الصادرة عن الموقد وقت الطهي.

العرق يتصبب من كامل جسدها حتى أن جلبابها، كان قد شف على جسدها، وكأنها تحممت بملابسها، والموقد يساهم في زيادة الحرارة، لكنها حمدت ربها أنها كبد ضأن ونضجت سريعا.

أطفأت النار وفتحت الباب وجرت الى غرفتها تغير جلبابها، ثم تناولت الطبق فوق صينيه، واتجهت ناحية الردهة الطويلة التى تنتهي بحجرة الجلوس، يفاجئها صخب إخوتها، ومزاح خالها مع أمها، التي كانت تضحك بشدة، وسمعتها نقول: اللهم إجعله خير.. ولما لمحوها آتية، أزاحوا الأشياء من فوق المائدة، همَّت هي بالإنثناء

لوضع الطبق، لمحت جزءا من غلاف كراستها أسفل المائدة، والجميع لا يزال يضحك، حتى إن أمها كانت تجفف دموعها لشدة الضحك. الأرض منثور عليها قصاصات صغيرة من روايتها .

" روايتى..؟!"

تفاجئت بطلب الأم الهادئ:

" لمي ورقك بسرعة حبيبتي."

لحظتها؛ أحست أنها دا خل صحراء أسوان الشاسعة، يحوطها تلال من رمال متحركة وحشية، تحاول ابتلاعها وأحست لوهلة بالشفقة على نفسها وبالوحدة، رغم كل هذا العدد من الموجودين في البيت.

نظرت لزجاجة الماء الممتلئة، والموضوعة على المائدة، ودون قرار مسبق، أمسكتها من عنقها، وأفرغت ما بها على الجميع حتى أمها وسط تعالي ضحكاتهم.

تزداد الظلمة أمامها، لاترى سوى غضبها وأبطال روايتها الأولى يتمزقون بكل قسوة، وبلا سبب، رغم لومها لنفسها، لكنها أحكمت

كفها على الزجاجة، وضربت بها زجاج الشرفة الكبير بقوة، فتساقط الزجاج المنثور كالمطر فوق الضاحكين وفوق الأرض وسط جري الصغار وسباب الأم وشقيقها، واتهمها الجميع بقلة الأدب بل والجنون.

كل هذه المشاهد مرت أمام عينيها المغمضتين، وهى تحت تأثير "المخدر" المسكن لا تزال، يحاوطها شخوص روايتها الأولى، يبكون معها، يربتون كتفها، ويمسحون عن عينيها دموعها الدافئة التي كانت تفيض على الوسادة و تسيل على جانبي وجهها. أحست بيد أحدهم يسحب شيئا كان مربوطا بوريدها، وعرفت من صوته أنه الطبيب، حين قال لمن بالغرفة: " بعد زوال تأثير المخدر ستكون بخير."

الروح تعزف أحيانا

كانت تجلس وحدها، ما من شيء معها سوى قيثارتها، تعزف لها لحن عشقها.. تعزفه وتعيد عليها العزف السحري، ليؤنس وحدتها ويزيد صفاءها.

تقول دائما لنفسها:

"قد تخرج من الغربة يوما لكن وساد الغربة يبقى دائما داخلك كفخ موت صدئ .."

كانت قبل قليل مثقلة، كمن أحس لتوه بالفقد، تنظر إلى حيث القيثارة، تتراقص مع نغماتها..

فجأة رأت لحن قيثارتها الأثير يقف أمامها، منتصبا على قدميه، تبسمتْ له بلطف، وهي ترقبه، يبتسم لها بدوره.

أحست باسترخاء مطمئن، لكن رأت لحنها، يتقدم ناحية الباب. شهقتْ في داخلها، خافت أن يرحل، لكن نظرات عينيه هدأت خاطرها. أومأ لها أنه يذهب نحو الباب فقط ليفتحه، لم تكن تعلم كيف انتشر – للتو- ذاك الأريج يضوع بعطره في مكانها.

تبدو كالمغيَّبة، وأشار اللحن لمن كان واقفا خلف الباب ينصت للحن أن يدخل، أعطاه الأمان، فدخل مادًّا ذراعيه تجاهها، دامعا في وجد، فغرقت لفورها داخل صدره الفسيح.. أصبحت كالطفلة في حضنه، يحتضنها بكل قوة شوقه وشوقها حتى خالت أنها سمعت صوت مخاوفها تسقط أرضا، لم تسنح لكليهما فرصة تبادل كلمات العتاب.

باعد قليلا بين رأسه ورأسها، قَبَّل جبينَها قال:

" الفرح دائما عابرٌ، لكل نقاط التفتيش حبيبتي، فلتعذري طول غيبتي،كان عقلي يساومني، يجعلني أمسك على التراجع، فأبتعد ويتلبسني مع التجهم الهذيان، أطلب غفرانك.. أيام طوال كنت أرقد فيها على سرير الشفاء، علَّ خدرا يصيب جروحي السابقات فأشفى."

راحا يجهزان حقيبة السفر..

وذهبا معا؛ في صُحبة القيثارة.

اللوحة

نعم.. أجبتُ على تساؤل أحد المسئولين في ذاك المعرض الفني الجماعي بوسط القاهرة.. نعم إنها لي.

دفعه إعجابه بالوقوف متأملا لوحتي.

كانت تتوسط الجدار المواجه للباب الكبير فزاد فرحي.. تكوينات اللون فيها، حتما ستشد أعين الزوار، كما أن شخوصها النابضة بالحياة تدعو للتفاؤل.. بذاك النور المنبعث برتقاليا شفافا.. والذي ركَّبته من أكثر من لون.

لم يعلمني أحد كيف أرسم، أو أكوِّن مزيج الألوان، وحتى تحصيلي العلمي لم يتعد الثانية الإعدادي..

أرسمُ.. هكذا دون مقدمات، أو قرار مسبق وأحصل على أولى المراتب.. عقلي يفنِّد ويتذكر، بينما أجلسُ على تلك المصطبة الأسمنتية الباردة الجامدة، وحولي في حجرة الحجز عدد من مرتكبي الجرائم وذوي السوابق ومتعاطي الممنوعات، تحاصرنا رائحة عفنة تنطق بها الجدران، وتفرض نفسها علينا بوصفها فردا منا.

لولا رغبتي الملحة، والتي باتت واجبة، أن أبتعد عن الهامش؛ ماذا كان علي أن أفعل إذن؟ أردت أن أصبح رقما، في معادلة الحياة الفنية، لكني أصبحت رقما داخل حجرة الحجز في هذا القسم الأقدم من أقسام الشرطة.

أنا عن نفسي فشلتُ في الإجابة.. فهل يخبرني أحدكم، قبل أن أجنَّ، وأن يفوت موعد إعلان نتيجة المسابقة:

من أين كنت سأحصل على ثمن الألوان..ياإلهي..؟ من عائد الجائزة التي أتوقعها، كنت سأرد له نقوده.. هكذا وبكل بساطة. ماذنبي في أن أسرتي فقيرة ؟.. وما زاد الطين بله وألما، أن تجنن أبي يوما وطلَّق أمي، فتوقفت حياتنا كلنا، كما توقفتُ عن الذهاب للمدرسة، ليس أنا فقط بل وإخوتى أيضا. مكثنا طويلا نتنقل من بيت قريب لبيت غريب، إلى أن تقدم أحدهم لأمي فتزوجت منه.. ووافقت على شرط الرجل بأن تصطحب معها أخي الأصغر فقط، وذلك بدافع شفقة مكذوبة، غلَّفها بإستجابة لتوسلات أمي، لكن الصغير أراحهما، ولم يأخذ وقتا طويلا بينهما ومات بفشل كلوي لم يعالجه أحد..

هكذا ببساطة، فالفقير يموت في بلادي هكذا وببساطة، وكان الرجل يدير تجارة بسيطة في بيع الأدوات المنزلية، ولايمتلك محلا، اللهم إلا الغرفة التي تأوي ثلاثتهم، وتكرم عليَّ يوما بأن جعلني أسرح له ببعض الأدوات المنزلية، مقابل مصروف يومي بسيط، أروح الف الشوارع والمقاهي، وأحيانا أخبط على أبواب البيوت، وأعود ببقية البضاعة وبضع جنيهات، وبعض الآلام في قدمي وظهري وأصبر نفسي بأن الفرج سيزورني يوما ويتغير الحال.

أسلِّمه ثمن ما ابتاعه الناس، وتقدم لي أمي سرًّا وهي مرتعبة بعض الطعام على أن أسرع الخروج من البيت قبل أن يجيئ هو.

كنتُ لا أحسُّ بالنقمة على العموم إذا قارنت بين حجرتهم، وبين العشة التي استطعت أن أبنيها بما توفر لي من قروش بفضل وظيفتي التي أطلق عليها زوج أمي اسما متحضرا: مندوب مبيعات. أحملُ الترامس والخلاطات الكهربية المضروبة والمكاوي..مربوط بعضهم ببعض، والباقي أحمله في كيس بلاستيكي كبير على الكتف الأخرى.

أحيانا كنتُ أرجع بكامل الأشياء، ولكن هذه المرة قررتُ أن أبيع كل البضاعة التي تخلع كتفي.

جلست على إحدى المقاهي، وناديت على البضاعة بأعلى صوت بعد أن قللت السعر للنصف. وبالفعل انتهيت من عبء الكتفين سريعا، وهرولت أشتري احتياجاتي من ألوانٍ وخشب وفرشياتي بأحجام مختلفة، واختليتُ بنفسي متناسيا زوج أمي ونقوده وإرهاقي. ومكثتُ أنجز لوحتي.. اعتكفت تقريبا.. وإذا قرصني الجوع، أعدل الطوبات الحمر؛ اثتنان في كل ناحية وعليها كنكة الشاي وألتهم كوب الشاي برغيفين كاملين.. وأعود لأكمل.

حتى انتهيت من اللوحة، وقدمتها للمعرض الجماعي. واليوم ستقوم اللجنة بالتحكيم لمجموعة اللوحات في المعرض، ذاك بينما أنا هنا محتجز بقسم الشرطة، و مدان بسبب بلاغ زوج أمي واتهامه لي بالسرقة. لم أسرق ياسادة.. فقط أخذت بضع الجنيهات، على سبيل السلف، وحين أحصل على نقود سواء من جائزة أو بيع اللوحة، سأرجع له نقوده والله شاهد على صدق كلامي.. لم يصبر علي هذا

الرجل لم يشفع لي أن من ولدتني تخدمه، وتغسل ملابسه الداخلية، وترعى مصالحه. يالك من جشع أيها الرجل.

أسأل نفسي؛ ماذا لو وقفت أمام القاضي قويا بعد ترحيلي إلى مبنى النيابة، وحكيت له القصة من بدايتها في المحكمة؟ هل سيصبر علي الرجل ومستشاريه ويعطيني فرصتي؟ هل يوافق أن يطلق سراحي بعد كتابة تعهد مني يفيد بإلزامي دفع ديني بعد عدة أيام.. فقط عدة أيام ياسيادة القاضي.

غفلت عينا الصبي، وراحت رأسه تتوسد ركبتيه.. فرأى في نومه قاعة المحكمة كبيرة، مزرقشة جدرانها بجداريات مبهجة ولوحاته القديمة، المكتملة منها وغير الجاهزة، ترتص في القاعة.

ورأى نفسه يرتدي بدلة عرسٍ، وكل أصدقاء طفولته حوله، مع كل من صادفهم وجادلوه فى أسعار الأشياء التى كان يبيعها.. كلهم كانوا ضمن الحشد، حتى أمه وشقيقه الذي مات.. الجميع يغني أغنيات الزفاف.. وصواني الطعام الفخم الذي تصادف ورآها فقط في الإعلانات أو حين كان يسير بجوار أحد المطاعم الكبرى. قاعة أفراح

إذن.. وعلى منصة القضاة يدور المطرب المشهور بالمايك، يغني وأمامه الراقصة.. اقترب من العروس التي كانت تجلس بجواره أمسك بطرف الطرحة التي تخفي بها وجهها المطـأطئ إلى أسفل خجلا ليرى وجه شقيقه الأصغر الذي لم يسعفه أحدا من آلامه ويفيق مفزوعا.

رسول العشق

حين جاء رسول العشق، اصطفى قلبي، واصطحبه في خلوة، يطلعه على سر الكشف، ويتمم معه وصايا الوجد..

وكان قلبي ممسكا بيديه، طفلا سعيدا مدهوشا، يكاد يتعثر في مشيته، ولم لا ، فقلبي طفل غِرٌّ بريء، تداعبه خيالات الرؤية، تستبد به الرغبة في الوصول، يستعجل خطى السائر بجواره والممسك بيده في خجل طفولي، ويحيره الترقب.. ترتسم أمامه خيالات مجسدة، يسمع صوت دقاته تئن.. أمِن أمل يحدوه..؟ ربما .. أم لشدة الوجد وطول الإنتظار..؟

يفرِّق في نفسه بين بعض معاني المفردات المعتاده، يختار كلماته بإصرار العاشق، وكأنه يسَّري عن نفسه، طمعا في أن يقصر طريق الهدى إلى المحبوب.. تشغله كلمة"يرتوي..ارتواء" ويخلص إلى قناعةٍ، أن البون شاسع بين"أن يشرب"و"أن يرتوي" كما هو أوسع بين الاحتضان والعناق.

هو ينشد تحقيق معجزته في نيل حظه من الارتواء؛ ارتواء الروح.. شهادة ميلاد لبعث جديد، تقويما مغايرا لما رأته أو سمعت به، علها لم تبحث من قبل عن "المخاطرة" لكنها مستعدة الآن، والآن فقط لمواجهة الخطر.

وعندما توقف رسول الحب بجوار البحر، ترك يد قلبي الطفل، وأشار له ناحية البحر، انثنى بجسده المهيب كي يقترب من صغيري قال:هنا.. في بلد الموج والرمال.. يوجد مكتوبك الخاص..اقترب من أكبر الموجات لتسألها، تأكد رغم ملوحة ماء البحر سترتوي بحلاوة ماءه.

كان الليل يزحف ببطء، وكأنه مل المجيء، أو مهموم بشيء ما، لكنه مضطر، ففرَش ظلمته فوق البراح، متلكئا قابعا خلف سحابات رمادية، كانت تخفي جزئيا بعض ضوء القمر، والأرض طوال الوقت تتطلع في عشق مجبول وظاهر، مفتونة أو مجبرة، لا يهم، وحين تستكين الأرض تحت ضوء القمر، أخال أن بينهما حوارا عاشقا صموتا، على أثره ينثر القمر لآلئ نوره الفضي على المكان، كالحرير البراق.

ليلة شتوية

أقف في تلك الليلة الدافئة من ليالي النهايات الشتوية، أرقبُ خصاصات الشيش التي تخفي حجرته، الضوء الخافت خلفها يشي بقلقه..

في لقاءنا السابق؛ قلت له إن العين مفتاح الروح، لا تحاول الإفلات بالتكتم، وإن الصمت مقصلة للروح وللضمائر، وحتى للمصائر. لكنه احتضن صمته كوليد يخشى عليه ممن حوله، هكذا أصبح عالقا في ماضيه كعنكبوت نسى وأفرغ صمغه على أقدامه، فثبت في عين المكان.. هكذا هو منذ أعوام يحتضن صمته، قنفدا كلما ضمَّه، أدمته أشواكه أكثر.

يومها قلت له إن الروتين يقتل الروح ياعزيزي، لا أحتمله بشكل شخصي، فلك أن تختار بين الحياة أو أن تختفي في الظلمة، فالعشق عندي معادل للحياة، وما تريده أنت ليس عشقا، فلا تستعير كلماته

بالله عليك، فمهما غلفتها وزينتها بما أريد أو أشتهيه، لن أصدقها فهي قشور واهية، الحب ليس في إذعاني فقط لرغباتك، ولا في أن أتحمل تقلباتك المزاجية المفاجئة، ليس حبا ذلك الذي لا يعترف برغباتي وطريقتي في إعلانها وإحتفائي بها، نحن لا نسرق حتى تخفي مشاعرك عني حين القاك، البوح ليس بعيب.

لكنه أراد أن يعيش بطريقته هو، دون أن يفسح لطريقتي مكانا.

فمات.

صانع الفرح

أصر سائق سيارة الأجرة اصطحابها حتى داخل البوابة الحديدية، تترنح في مشيتها، هم بإسنادها ثم فتح المقعد البلاستيك الذي جلبته معها،وبعد أن جلست ابتعد عند نهاية البوابه ، يشعل سيجارته منتظرا.

عبر قارتين اثنتين أتت لزيارته، تذدرد ريقها ، أحست لوهلة أنها فقدت القدرة على النطق.

وقفت ترشرش بضع قطرات من ماء الورد، تلك الرائحة التي كان يفضلها، قبل عامين حين رقد رقدته الأخيرة، مسحت بكف يدها، على أعلى الشاهد الرخامي، فبان اسمه وتاريخ ارتحاله،

طوال طريقها من الفندق إلى هنا، يدور ببالها سؤال واحد استعمر رأسها، وكأن عقلها يبتدع تساؤله، يشغلها عن رهبة اللقاء ولوعة الفراق:

" لم تذهب أشخاص مثله؟ كان جميلا عطوفا لتلاميذه، وأهل بيته وأصدقاءه،كان يعمر بيوتا بكرمه، لماذا يرحل من نحبهم.؟"

ابتسمت بعد تنهيدة وجلة، نعم جئت أيها الغالي، وفي نفس الموعد، وهذا ماء الورد الذي تحبه.. تعرف أني ليلة وحدتك، حين قررت الرحيل من حولنا، كنتُ سأهرب بعد انتهاء المراسم، لأجيء إليك، أرقد بجانبك، وأونس وحدتك، لكني خفت، كما أني نظري بالليل شحيح.

الأمور تسير معنا على مايرام، والحياة تسير، لكنها معي متلكئة ياغالي، تسير بأقدام حديدية تدهس داخلي.

أراك أمامي وأحادثك عدة مرات باليوم،كما إني أجهز لك معي قهوتك، في نفس فنجانك.. مرتين باليوم، تعلمت منك أن لا شيء يدعى وحدة، وأن وحدة الأماكن إنما هي محض رفاهية، لكن وحدتي بعدك هي اليتم عزيزي.. ماذا لو أخبرتك عن كل ما مر بي منذ رحلت.

عصفور القلب

كان حبيسا في صدري موجة عاتية من الرغبة في الإجهاش بالبكاء، بأعلى صوت، تنتابني وتعتريني.

أترك لها ذراعَيّ وكامل جسدي، في استسلام غريب. ذراعاي بجانبي، غير عابئة، أغوص لأطفو، وأغوص ثانية كجثة، تتبعثر حولي، تتراقص كلما هبَّ الهواء ثقيلا، تلتصق بوجهي ورأسي، تخفي حتى بصيص الضوء المتبقي قبل مجيء الليل، ولا تتبقى سوى أحرف ملونة بمختلف الألوان، تتناثر حولي، تصنع بركة على مقاس جسدي، تشدني في اتجاه الشاطئ، أعتدلُ باكية كمصدوم، وأعود طفلة، تقف أمام عينيّ، وقد أحسّت أن السنوات الماضية سحبت منها حيلتها وقدرتها على الصمود، الذي اعتادته، والجرأة على الفعل، بل وعلى الحلم.. تقف مهشمة، كدمية دمرها القدم، لكنها لازالت تحمل نفس ملامحي.. مددتُ يدي أمسح دمعاتها، تستحلفني، في بوح صامت، أن أحملها، وأن أرحل بها، معللة بسأمها من السير في نفس ذاك الطريق، ورغبتها في أن يخلو صدرها من تنهيدات يومية عبثية مؤلمة، تستجدي

ارتداء ملامحها للمرح القديم، وأخبرتنى أن صوتي سوف يصدح ثانية، بأغنيات وأناشيد كدتُ أنسى مضامينها.

تحاوطني الآن أسراب من الطيور، علها عصافير. أكبرهم اقترب مني، وأخذ يعمل منقاره في صدري بلطف بالغ، يفتح ثقبا في صدري، ويطير من داخلي عصفور آخر كان متربعا بين شغاف القلب. وقف أمامي لا أدري في تحدٍ، أم في عتابٍ صامت لسجني له سنوات طويلة، أم لحرماني إياه من الصحبة، التي تلتف الآن تصنع دائرة ملونة منشدة مبهجة.

نظرتُ إلى الثقب المفتوح في عمق صدري، ساويتُ أطرافه بلطف، فتفاجأت للتو، بانزياح الألم الذي صاحبني سنينا، بعدها انكمش جسدي، بت في حجم أحد العصافير التي احتفت معي وبي، لكن جناحي كانا أطول قليلا، فردتُّهما على الجانبين، وأضحت العصافير تتناوب الحط عليه، وتلتقط ما أنثره لها من طعام.

عطفة خوخة

كغيرهم من آلاف الطلبة الوافدين من القرى، ومن مختلف المحافظات، تمكن أربعتهم من إيجاد شقة بحجرتين، في ذلك الحي الشعبي.كانت بالطابق الأرضي،حملوا ملابسهم وكتبهم وقسموا أنفسهم، كل زميلين بغرفه، وكان حسام طالب الفنون الجميلة مسئول الإعاشة، لدرايته بفنون الطبخ الذي يهواه، ويتفنن فيه، على قدر ميزانيتهم المتواضعة، وبحكم وجود شرفتهم الأرضية قريبة من الشارع، ومن مدخل البيت ذي الطوابق الخمس،كانوا أول من يشاهد كل من يصعد أو ينزل من الجيران.

اعتادوا رؤية"طارق"تاجر الحشيش، صديق صاحب العمارة المحكوم عليه في قضية جلب مخدرات،كان دائم الصعود إلى شقة السجين، يقضي الليلة مع "أم عمرو" صاحبة البيت، الآن في غياب الزوج، وبعد إسبوعين من استئجارهم الشقة، انقطع طارق عن زيارة المرأة، بعد شجار يقول الجيران أنه مصطنع، فقد زهدته بشعره المفرود

وملابسه ذات الألوان الغريبة، حتى أن أحدهم كان يطلق عليه اسم"شعبله"لتشابه ذوقه مع المطرب شعبان عبد الرحيم، في ارتداء الملابس والأساور الرجالية حول معصميه.

وعندما طرقت " أم عمرو" باب شقة الطلبة في ذاك اليوم، فتح حسام الباب، مدت يدها إليه، بوَلهٍ مصطنع؛ " ازيك يا أستاذ"

ثم استحلفته يطلع شقتها، يراجع مع ابنها دروسه، لقرب الامتحانات لكنه رفض بحجة؛ "كلنا عندنا امتحانات معلش ياحاجة"،

وفورا شهقت؛ "حاجة دا إيه؟ شايفني عضم في قفة ولا البعيد ماعندهوش نظر؟"

تلجلج "حسام"، واحتار، فأنقذه ياسر قائلا: "باعتذر لك ياهانم شوفي له مدرس بعد إذنك".

ثم أغلق الباب، مرت ساعة أو أكثر بقليل، وتأتي المرأة لتطرق بابهم ثانية، تسأل عن دجاجة، ادعت أنها سقطت أمامها من شرفتها إلى شرفة الشباب.

كل عدة ساعات لا تمل من ردودهم الجافة، ولا كشفهم الأسباب الملفقة التي تدفعها لمحاولاتها المكذوبة تلك.

في أحد المرات، وبعد مراقبة الشباب، وتأكدها من خروج ثلاثتهم، وكان حسام وحده يطبخ لهم غذاء اليوم، طرقت الباب. كان قد أطفئ عيون الموقد لتوه مرتديا فانلته الحملات والشورت، فتح الباب، وإذا بها تدخل دافعة الباب خلفها بقميص نومها الأحمر الشفاف عاري الصدر والذراعين، وقد زججت حاجبيها بالأسود، وملأت مساحة وجهها بالأحمر، لم يفكر الفتى القروي المذعور، لكن المفاجأة حثته على الجري والقفز من النافذة على الرصيف حافيا، وأشار لسيارة أجرة، واتجه إلى كليته وحدث الحارس وطلب منه إحضار ياسر، الذي جاء مهرولا في حين الحارس أعاره قميص قديم" استر نفسك يا ابني، لكن ياسر وبعد سماع حكايته ظل يتخيل المرأة وهي العفية الممتلئة تقبض على حسام أقلهم حجما وأكثرهم رقة قال ضاحكا: "مالكش في الطيب نصيب".

اجتمع الأصدقاء الأربعة على المقهى المجاور واتفقوا على ترك البيت، والبحث عن مكان آخر، فقد كان كل خوفهم من أن تضيع منهم تلك السنة التي قاربت على الإنتهاء بسبب هوس تلك المرأة، دائمة الرغبة في الرجال، وأخدوا يترحمون على أيام طارق العايق الذي كان يجنبهم رغبات " أم عمرو". وبمساعدة زميل لهم وجدوا شقة بعيده عن شقة "الكمين" تلك.

وبعد عدة محاولات فاشلة نزلت " أم عمرو" ومعها خادمتها تحمل صينية نحاسية كبيرة تحوي أشهى الطعام الذي لا يستمتعون به إلا عند زيارة أهليهم في الأجازات، فتح لها ياسر مزدردا ريقة ولم ينزل عينيه عن تلك الوليمة: ليه التعب ده بس؟ فردت في جدية :مش انتو حتمشوا بكرة؟ اعتبروه حفل وداع، وطلعت مع خادمتها. ظنوا أنها شعرت بالذنب وأرادت أن تترك لديهم ذكرى تنسيهم شغفها، ومحاولاتها المكشوفة السابقة، وكاد ياسر أن يلوك قطعة لحم، لكن حسام صرخ عاليا، وضرب يده فسقطت قطعة اللحم على الأرض وسط ذهولهم.

قال لهم: لا يمكن الست دي تعمل خير، الأكل ده مسموم.

أخذ حسام يتخيل لو كان مسموما بالفعل، وسقط الاربعة صرعى رغبة أم عمرو.

قال ياسر:نجرب في الكلب موجود تحت الشباك.

فاستحسنوا الفكرة والقوا بقطعتين كبيرتين من اللحم كي يلتهمهما المسكين بسرعة، وينتهي قلقهم وانتظارهم ويلتهموا هم بدورهم بقية الوليمة الشهية.

دقائق معدودة وقفوا خلف بعضهم يتفرجون باستعجال على الحيوان المسكين، الذي بدأ في سعال وتألم، ثم تلك الرغوة التي سالت من خطمه، يالله، علَّ الذنب يعود على تلك الهائجة.

تركوا الصينية النحاسية أمام الباب، وأغلقوه . وقد تخيل كل منهم نفسه يدور في دوامات مؤلمة ويرغي فمه.

قرروا المغادرة تلك الليلة، جمع كل منهم ملابسه وكتبه في أكياس صغيرة يناولونها لحسام أسفل النافذة، وبدوره يضعها في شنطة سيارة

الأجرة، التي جعلوها مخفية خلف شجرة الفيكس الكبيرة، حتى لا تلمحها المرأة.

نزلوا الثلاثة وتركوا لياسر مهمة توصيل المفتاح لصاحبة العمارة، خبط على بطن الباب خبطات سريعة فتحت كانت شبه عارية مد يده لها بالمفتاح فأمسكت كفه وحاولت شده إلى داخل شقتها، لكنه نجح في انتزاعها، وسبها بصوت عال عدة شتائم حتى أن بعض الجيران فتحوا أبوابهم متأففين، وقال أحدهم مستنكراً:

"هي الوليه دي مش حتبطل بقى..؟"

ثم صفق باب شقته بشدة .

وقت طرقتَ بابي

وقت طرقتَ بابي، بلطفٍ يكشف كُنْه الطارق، لم أتسرع، بل وبقصدٍ تمهلتُ في الرد...وجلستُ بخجل غريب علي، حطيّتُ مكان جلوسي، متيبسة،كشجرة زرعوها يوما، وأنستهم الأيام طريقة ريّها، فتحرقتُ عطشا وغيابا.

تتصاخب حولي شِجارات مسموعة، ملأت يومي بل أيامي؛ بمساءاتها ونهاراتها، بين عقلي وقلبي، وقتي وعمري، سهدي وشوقي ورغبتي الحارقة في الراحة.

هدني الصخب المفاجئ ماعدتُ نفسي قبل الأمس، نبضات تطرق جسدي، تدفعني للصمت الخائف، أجلس مذعورة..

وحين ترك الليل مكانه مجبورا للنور، وطرقتَ الباب بنفس هذا اللطف، لم أتريث، حتى أني لم أستفسر عن سبب طلب الإذن بالدخول.

الحائط ساهم في خلق مرآة كبرى، أرتني نفسا أخرى غير نفسي، محض أنثى، امرأةً غيري، طفلة صيغت كل ملامحها توا وتشكلت، مُرسَلة في علبتها القرمزية، تتبسم في وجل، تمد يدها تحتضن كفك، تأذن لك بالدخول.

حين طرقتَ البابَ.. في غزوتك لقلبي، بات الكون رهينا، ترك شواغله وتفرغ يرقبنا في شفقة، على فيض الوجد، وذاك النور الراقص في طيفينا، تأهب في صلاته يلهج بالدعاء لنا والتمني.

السحلية

سحبتْ حلمة ثديها ببطء من فم الوليد، ساوت بعض الشعيرات القصيرة المتفرقة على رأسه، أوسدته فراشه، قبلتْ رأسه وهي تحكم الغطاء حوله.

ساعدتْ شقيقه في تكملة ارتداء ملابس المدرسة، وضعتْ له طعام غذائه بعناية في جيب حقيبته، عادت بعد أن أوصلته المدرسة. تدق جرس الباب، هو بالدخل، لكنه لا يفتح كعادته، تنسَّل أصابعها تخرج المفتاح من حقيبتها، وتسمع همسها يقول: يالله..تعبت.

اشتدّت رياح ذلك الصباح الأمشيري، حتى نزعت ستارة حجرته وألقتها على الأرض، شدَّت قبضة الباب وأغلقته على من يقبع صامتا كميت، بعد أن أخبرها نظرها بعدم وجوده بالغرفة وإتجهت إلى المطبخ، تكمل تنظيف أواني طعام المساء الفائت، وصبَّت الشاي بعد أن سمعت كركرة الماء أخذت كوب الشاي واتجهت لحجرتها،،لتحتسي شاي الصباح،،لكن غسالة الملابس أعلنت عن انتهاء دورتها، قامت نظَّفت الطبق البلاستيكي الكبير، ووضعتْ به الملابس المغسولة توا،

ورغم شدة الهواء كانت تكافحه، وتثبت قطع الملابس على الأحبال.. بيدها الآن إحدى قطع ملابسه، صغُر حجمها عن الغسلات الماضية، حتى باتت ملابس الرضيع تكبرها حجما، حارت كيف تمسك القطعة بطرفي أصابعها.. وفجأة وصلها صوته يرج تخيلاتها وهدوءها، وينافس صوت رياح أمشير: الأكل إيه..؟

كاد قلبها أن يسقط فزعا، من المفاجأة.. تُكْمل نشر قطع ملابسه، تقول لنفسه، الانسان أصله قرد، أما هو فأصوله ترجع للزواحف، لا صوت لقدميه حين يسير، أكيد هو استعار منهم طريقتهم في التسلل والكمون، لكن الزواحف تسير بحذر وتتلون لتحافظ على بقاءها، على الأقل.

كل صباح كانت تلحظ تضاؤل حجمه.. هو مجرد صوت لا مرئي، حتى أنها تعلمت أن تسير بحذر، في رواحها ومجيئها بالبيت، خوفا من أن تدهسه دون قصد، ويلتصق بقدميها،

أكملتْ نشر الغسيل..وتتجه الآن إلى درج مكتبها؛ تتأكد من تاريخ موعد الرحيل.

بردية حب

جلستْ، تحتسي وحدتها على مهل، كمن سلم نفسه طوعا لقدره، أو ينتظر أن يبرأ، وكلما زارها طيفه يفوح الأريج حولها يحتضن سمعها صوته كساق لبلاب احترف التسلق ، وتشرد في سقم، ثم يراودها النوم، وتتواصل الأحلام حلما وراء آخر، تحثُّها لكنها تتردد دائما. في ليلتها تلك سمعت هفهفة رداء الكتان الأبيض التي ترتديه إيزيس، شمس الشموس الجميلة، تعبر الباب الموروب، تدخل بوابة أحلامها. اندهشت لثوان، ولما ساءلتها ردَّت: جئتُك لأصطحبك إلى محبوبك، إنه لا يعرف بمجيئي، لكنه مثلك ينتظر لحظة البوح.. لقد شعرت بحبك، ولمحته في شرودك الدائم أينما رأيتك.

فركتْ عينيها، غير مستوعبة ما يدور أمامها. بادرتها إيزيس:

فلتهدأ روحك يا ابنة النيل..

اطمئني وافترشي السلام،

فمولاي قد حدد لك عطاياه.

أثواب وزينة لجيدك،

والحلي الملكية ليديك،

فأبتهجي يا أختاه..

علا صوتها وهي تشير بكفها أن لا..لا لا أريد حلي ولا ثياب،

أريد محبوبي فقط، فالحب يكفيني..

هو الكون لي، هو المطر،

هو أرضي وسمائي سيدة الكون،

إنه نيلي الذي يروي ظمئي، وعطشي لرؤياه وملاقاته..

اذهبي إليه وأخبريه بالله عليك، أنه معبودي،

وأنه لجميل ذلك المكان الذي سوف نتنزه فيه معا، تكون يده ممسكة بيدي، ويكون جسدي وروحي في غاية الراحة.. أستحلفك بماعت أن تخبريه؛

إن صوته لي حياة بعد موت..

اذهبي إليه، يا رفيقة الروح وأخبريه؛

إن كل ما أريده، عندما أميل على صدره، أن أتشمم عطره،

أن أتسمَّع لموسيقى دقات قلبه..

وقتها ، سيكون هنا في بيتي الذي سيكون بيته،
وقيثارتي ستصيبها لوثة من عز الفرح،
وتصدح بأنشودتي الخاصة،
التي طالما عزفتها على أوتارها في وحدتي..

أخبريه أيتها الإلهة الأم ايزيس؛ أنني لم أبخل أبدا بتأدية الطقوس.. لم يحدث أن رفعت عيني على فتًى غيره.. لم ألقِ بأية ملوثات لمعبودي النيل حابي العظيم.. وأني قدمتُ الكثير من القرابين.. لم أكف عن الصلاة، فكوني بجانبي ياشمس الشموس، فأنا خجلى، و غير قادرة على البوح..

أنقلي إليه رسائلي، وطمأنيه أن حبي له لن ينفذ ماحييت وكيف وقد تغلغل إلى جسدي كله، كما يمتزج الماء بالنبيذ..

سأطعمه وأدفئه، وإذا ظمأ ألقمه ثديي، الذي سيفيض من أجله، فأنا ما عدت بقادرةٍ على التحكم في فيض دقات القلب المضطرب، وماعدت ألمس قوارير عطوري، ولا أدوات زينتي.. أريده أن يعرف

بشوقي إليه، وأن يأتيني بالنور.. إنه لا يعلم بحال نفسي، وأنا أعذره، فأنا لم أخبره بحالي فكيف يجيء إلي،

الآن متروكة أنا.. يقتلني القلق وطول الانتظار،

يقتات الشوق على جسدي، وروحي التي باتت متعبة،

أخبريه يا أم حورس الإله ياعاشقة اوزوريس أن ريعان بدني كاد أن يتيبس، وأن جسدي المتعب لن يتحرر من حبه..

أخبريه أن يلبي نداءاتي.. أن يحضر توا.. وسأترك بابي، ليل نهار، علَّ طير الحب يخطره بألم الحب، ووجع القلب..

وقولي له: أنه عندما سيأتيني، سأخرج من البركة أمامه، وقد التصق الثوب بجسدي فيراه.

صحوة

اليوم مختلف.. وأراهن بالباقي من عمرٍ ضاع نصفه هباء، هي ليست حربا، نعم.. ولم تكن كذلك، بل هي لحظة حساب كاشفة، أردتها دوما، لم أكن مستعدة لفتح هذين القوسين الكبيرين، وأحبس بينهما كل أكاذيبه وادعاءاته حتى تتضح أمامي مثل اللحظة التي أعيشها الآن، وتكشف فاجدني أقف أمامها صلبه كجبل..

لأول مرة يسطع أمامي كل ما بين القوسين حتى درجة التوهج. أجلسُ هادئة الأنفاس مطمئنة للمرة الأولى منذ قرون، انظر للشجرة الكبيرة الوارفة، والتي أتكئ عليها، أمد يدي فتنثني ناحيتي في حنو ، مقتربة من يدي، تجعلني أقطف ثمرة وأنا مدهوشة. أتبسم لتمايلها المواسي، تتزايد انثناءتها أمامي وحركة أغصانها الكثيرة، وكأنها ترتعش، فترشُّني بوريقاتها الصغيرة.. الشجرة تلعب معي، تداعبني أم تطمئنني؟

يالله، تميل ثانية لتصل بثمرة أخرى لكفي، وكأنها تربت على عمر سرق وقلب كاد أن يعييه البكاء، تبزغ أمامي عين ماء رائقة ترتسم ملامحي فوقها، وبعد أن تسكن اهتزازاتها؛ أرى ملامحي مرتاحة فأهجع للنوم مبتسمة.

دعوة للرقص

يرقبها عن بعد، نظراته الصامتة تفيض بالكلام، يحتسى ماتبقى من كأسه، وأخذ يقترب منها. ورغم صخب المكان وكثرة الرواد، تجلس قلقة ملامحها محايدة لا تنم عما يدور بداخلها من هواجس ومخاوف، لم تعد تثق إلا بما تحسه هي، فالرجال في أغلبهم يزيّنون كلماتهم، ويلبسونها بجميل اللغة والمشاعر، وحتى اللكنات الأجنبية.. ليست في حاجة للألم هي، مازال أمامها عمرٌ، تستطيع عبره اختبار النفوس قبل أن تدخل في دوامةٍ ما.

تقدم هو من مقعدها، وجلس بجوارها، صامتا في البدء، يتفرس في ملامحها ويبتسم، قال هامسا: ضحكتك دوما بإتساع البحر وفساحة السماء، حينما تتباهى بمصابيحها اللؤلؤية في فخار،لم كل هذا التجهم..؟!

تحتار الآن بين قراراتها المسبقة، وبين ماتحسُّه عندما اقترب منها، وذلك الصهد الذي غزا أطراف أذنيها.

تأخذ شهيقا وهي صامتة لكنها مبتسمة.

تعرفه قبلا، يعجبها حسَّه الدافق، حين يكتب، ورأي أغلب أصدقائهما المشتركين فيه، تعرف أيضا أنه مثلها، يخفي صهيل رغبته، يكتم نداء الجسد، وأنه لم يرتبط قبلا.

فاجأها بقوله وبهمس أكثر:

أنا أحبك ..

هكذا دفعة واحدة وبلا مواربة، وأنت تعلمين، والآن أدعوكِ للعيش، للحياة بأوسع صورها وأينعها.. لا تخافي من الحب.. أنا افهمك.. نعم وأعرف فيم تفكرين، ومصدر سحابة الحزن تلك.

يتفحص ملامحها التي تاهت وسط ألسنة نيران مخبوءة. يهمس:

أنوثتك الطاغية تقمعينها، وكأنك تتبرأين منها، وتندمين جدا عليها، لا تقتليها بالانطواء، وعزلتك وتجنب رسائلي ومكالماتي، بل و كل البشر ، لا تكتفي بثقتك في نفسك، ومشاعرك فقط جميلتي.. ممكن؟

العشق به ألق يزيدها اكتمالا، هي لا تعرف ذلك، وكما يقول هو"فيه إكتمال للروح أيضا يافنانة.."

بعد فترة وجيزة؛ استجمعت شجاعتها، تقودها الرغبة الحبيسة في المغامرة، أو حتى محاولة أن تغامر.خرجتْ ضحكتها رغما عنها وكأنها تسبق خطواتها وتشجعها، ورمت بالجهامة مع شالها القرمزي القطيفي الكبير، ضحكتْ وسمحت له بالرقص معها، وبمجرد تلاقي الأكف، والإتجاه نحو الحلبة، وجدتْ نفسها بلا وزن، وكأنها تطير، تحلق داخل حضن وسيع، صدر مشرع كأبواب الجنة.

نقش الحناء

شعور بالتسامي والشموخ يملؤها، يخفف من وزن جسدها، يمحو وإن قليلا وجع الحس بالندم، والتي لم تعتاده قبلا، مشاعرها الإيجابية تلك تنعكس بقوةعلى ملامحها، فتزيدها ملاحة، وتبدو بشرتها رائقة، ويتخفف الرمادي الذي يرسم هالات دائرية حول عينيها فتلتمع نظراتها عن ذي قبل، كانت أمي يملؤها الحبور، تطير في مشيتها وكأنها لا تسير، ليست هي نفس الأرض التي اعتادت أن تحتضن خطواتها، ولا الناس هم نفس البشر .

هذه المرة تعرف وتدرك معنى وأهمية الخطوة، التي ستقدم على تحقيقها.

أصبحت من الماضي الآن كل تلك المحاولات، التي باعدت دوما بينها وبين تحقيق ما ترتأيه.. عراقيل تتخفى وراء وشائج حريرية، تسحبها بخيوط شباكها إلى الوراء وتغوص ثانية في نفس الماء الآسن، دورة شبه أبدية، لا تنفض تطوقها.

تصدح أم كلثوم عبرا لمذياع برائعة الخيام ، تتمعن في كلماتها وكأنها تسمعها للمرة الأولى، ترى بين ثنايا حنجرتها الذهبية تحريضا محمودا مواتيا "لاتوحش النفس بخوف الظنون.. واغنم من الحاضر أمن اليقين"

كادت ترد عليها:حاضر.. رسالتك وصلتني يا سيدتي.

شككت دوما مع صديقاتها في قدرة عمر الخيام على التعبير بهذه الدرجة من العذوبة.. سلام لروحك أحمد رامي.

أبواب قلوبنا نفتحها للبعض، نجلسهم بداخلها، نصطحبهم معنا نأتنس بهم لفترة تطول أو تقصر، وأحيانا أخرى نشرع ابواب ونوافذ قلوبنا وعقولنا لنزيح عنها حمل أناس كانوا قبلا جزء منا. نحتل بأجسادنا مساحة من الزمان والمكان.

نتحد مع الكون بتعارفنا على من حولنا منذ نشأتنا الأولى، إلى أن نكتشف مكنوناتهم، فنسمح لهم بالغياب.

يوما؛ كانت تشاهد معي برنامج "عالم الحيوان" سمعتها تقول في تمنٍ: ليتنا ضفادع أو دببة، نقضي نصف حياتنا في سُبات شتوي. نرتاح بعض الشيئ، وحتى للأبد.

كانت ترزح تحت نير مسؤليات، تسيّر البيت وتراعى الصغار والكبار، وطلبات لا تنتهي للزوج، تكثر مشاغلها..

لاتجد لذاتها وقتا، ولو قليل للراحة، حتى حين كانت تنهي كل ما كان يشغلها، وترتكن لأقرب فراش، وتروح في النوم رغم الصخب الدائر حولها.

قبل سفرها، أصرَّت على الذهاب الى بلدتها لزيارة أقاربها وجاراتها القديمات. كانت الاجابة التى تتلقاها غالبا واحدة: " العمر الطويل لك."، فتترحم عليهم، وتعود يفطرها الحزن. تحضّرت بعد عودتها، للسَّفرة التى تحلم بها لسنين.

تزينت بملابسها الشتوية، التى مازالت جديدة والتى تليق بأول شهور العام الباردة، لكن حقائبها امتلات بالجديد من الملابس الصيفية مع ملابس الإحرام، والهدايا المنتقاة لأحفادها، أولاد ولدها الاكبر..

الذي يعمل في تلك البلاد، دعاها عنده هناك بالقرب من منطقة مناسك الحج. وتقضي ثلاثة أشهر هناك، تشبع من الأحبة وتزور أرض النبي.

كانت تحب الخروج والتنزه كثيرا، لكن ذاك لم يكن يتحقق إلا أيام السفر للمصايف الشاطئية الموسمية، ونذكر جميعا حين كنا في "مطروح، وكان الجميع نياما تعبا من السهر ومن سباحة الأمس، قامت هي مبكرا، وسألت عن مواصلة، وذهبت لرؤية متحف"روميل" ولم نكتشف ذلك إلا حين عودتها.

هذه المرة ستغيب طويلا، ثلاثة أشهر، كانت تردد أنها ستبتعد عن الشقاء..كانت فرحة تملؤها الحياة، لكن شرودا غامضا ملحوظا كان يلفُّها.

كانت تضاحك زوجة ابنها كلما اقتربت منها تساعدها في هندمة طرحتها ، شعرها الحريري المنسدل يعاكس محاولات تثبيته فوق رأسها، تقول : وبعدين. أقابله بدونه؟وكانت تشير إلى السماء

كانت تحكي لنا عن ليلة عرسها حين احضروا لها من يصفف شعرها بالبيت،كيف كانت حيرة الرجل في تثبيت تسريحة شعرها الرافض لملاسته أن يستجيب وعرض عليها وقتها أن يبلل خصلات شعرها بقليل من ماء الشعير، ويتركه حتى يجف، فيصبح أكثر تماسكا ويستحق أجرته.

قبل يوم الحجيج بيومين، زارت الجارة سودانية الأصل في الشقة المقابلة، والتي قررت أن تنقش يديها وقدميها بالحناء، وكأنها في طقس عرس، فهي ذاهبة للقاء "الحبيب" كما كان يحلو لها دوما القول، وهي تعني أيضا " ربها"، وعند توديعها لزوجة ولدها كادت تنهي احتساء فنجان القهوة، قالت لها شاردة: " لو أنهي قهوتي هناك.. وأسلم روحي لخالقها،أكون في غاية السعادة."

كان ولدها في مدينة أخرى في رحلة عمل قصيرة، وحين أخطروه أنها باتت في عداد من تم الصلاة على جثامينهم بمنطقة البقيع، لم يصدق، فقد كانت في أحسن حالاتها الصحية، لكنه اتجه صوب ثلاجات حفظ الموتى، يبحث عن جسد أبيض ناصع، وملامحها الطيبة

التي يحفظها سنينا، لكنه فشل في التعرف عليها، لتشابه الموتي، حين تمر أيام على الجسد الميت.

ولما هاتف زوجته، أخبرته بنقش الحناء، راح يبحث من جديد، مد يده على القدم الباردة، فرأى نقش الحناء، تأكد أنها أشفقت على ذويها، وسهلت له مهمة العثور عليها

السكون والبحر..

تعرف نفسها جيدا، تصبر الصبر الجميل وتحتمل هي، نعم لكن ليس للأبد، تتخذ قرارها الأثير الآن، دون طيف ندم.

أمسكت بورقة وكتبت قائمة بالباقي من الأشياء التي عليها شراؤها لشقتها الخاصة، في مدينتها، معشوقتها الساحلية.

تفخر الآن برؤية نتائج صبرها وتحملها الطويل، وجدية قرارها. وفي الصباح الباكر سوف تحتضنها شوارع ومحلات المدينة تنتقي وتشتري ما ينقصها، وتعود "محملة" فرحة في المساء.

في اليوم الموعود ذاك، كتبت له رسالة تقايضه بحريتها، بما يطلبه من مقابل أيا كان.

تناوشها بعض الذكريات الماضية، فتملأ كفيها بحفان من الرمل تنثره إلى الأعلى، وكأنها تشوش على تلك الذاكرة.. ترفض أي ذكرى قست عليها، حتى لو فقدت في سبيل ذلك الذاكرة،كل الذاكرة. تحدث نفسها:

" الرؤية أهم الأشياء الآن.. لمس المواقف.. الإحساس بها عميقا في دواخلنا.. لن أفعل ما يريده منى الآخر أو حتى الواقع.. لن أتعامى كالسابق عن راحتي وأشواقي.. وأخرج غير آسفة من دوائر احتراف التأجيل اللعينة.. لا شيء قادر الآن على اغتيال مشاعري"

أمامها البحر الآن ، يفخر بامتداداته المهيبة، تتهادى أسراب من النوارس شاهقة البياض، أعلى بساطه التركوازي، اللامحدود، في دوائر عالية، وكأنها تنقر الغيمات. تلك الغيمات الحبلى بزخات المطر تستعجله كي تغتسل.. تحلق وتهبط، تحاول أن تحقق للطفلة الساكنة في داخلها، فرصتها في أن تلهو تحت المطر.

ألقت الحذاء بطول يديها وكأنها سنواتها العجاف الماضي.. قرص الشمس كان لطيفا ودودا، يتدلى كالثريَّا، غنيا بالدفء البرتقالي، منافسة في مشهد سيريالي، يخلق الإنسجام ويؤكد مدى التناغم، مشهد تعشقه دوما، تنتظره دوما، بذهن صاف.. مشهد يزيل ويمحو تغضينات الروح، ليرسم فوق شفتيها الإبتسامة من جديد.

حوار

اليوم وصلتني رسالتها، صديقتي الأعز، والوحيدة تقريبا، فقد كنا جيرانا، وزميلات مدرسة حتى قرر أبويها الإنتقال، إلى إحدى المدن الجديدة التي تحاصر العاصمة عبر دائرة كبيرة متسعة من الكباري. وتنشغل كل منا بدراستها الجامعية، فهي ستصبح طبيبة وأنا أدرس لغة أجنبية. لن أنسى حوارها الغاضب معي يوم عرسي، فقد كنت بالفرقة الأولى لم أزل.. فرحة بالخروج الشرعي من سطوة الأب وقلق الأم وزحمة البيت، لم أستمتع بخصوصيتي يوما ولم أملك مكانا لكتبي وأشيائي الحميمة.

كان هروبا بالأحرى، لكنها كانت تراه انتحارا مبكرا، وغلق لكل منافذ الحياة الحقيقية.

كانت تريدني أن أنتظر حتى التخرج، وأصبح أكثر نضجا.عاتبتني كثيرا، لكني وقتها لم أحس بوقع كلماتها، لم أكن مجهزة لتكملة حياتي بنفس تلك الوتيرة، التي تختلط فيها ملابسي وأشيائي بملابس وأشياء

أخوتي.. الصخب الدائم لكثرة عددنا، حبي للعزلة، والاستمتاع ببعض الموسيقى الكلاسيك التي أعشقها وأحفظ بعضها. وحضوري من الجامعة قبل الثامنة مساء حسب أوامر أبي المتوعدة دوما غير عابئ ببعد المسافة وصعوبة المواصلات من الجامعة وحتى المنزل..لم تكن تدري صديقتي أنني بزواجي أكون قد قررت الهرب من بيت طارد. لم يحتويني.

المهم بعد طول انقطاع لأخبارها ولإنشغالها بالعيادة الجديدة والعمل بالمشفى.. أرسلت لي رسالة..لا أدري لم أتكاسل في قراءتها، علني أخمن ما بها قبل أن أفتح الإيميل.. أخمن أنها دخلت علاقة حب جديدة، بعد فشلها في غرامياتها الكثيرة السابقة. وحتى لا تسيئوا الظن بها هي عاطفية وحساسة جدا، وترى أن الرجل الشاعر أو الأديب الذي قطعا يدخل علاقات كثيرة كي يكتب بتنوع، هي لا تقل عنهم.. هي إنسانة، تكتب الشعر إذا أحست بالحب تجاه شخص، فلم لا تكمل علاقتها معه.. هكذا دون كثير تفكير.. أه يا سهى..لأقرأ رسالتك قبلا

"صديقة عمري، أجمل فيلسوفة

أفتقدك كثيرا خصوصا هذه الأيام، بالنسبة للعمل كل شيئ محبب ومعقول، لكني وأنا غارقة في علاقة غريبة عجيبة فيسبوكية تذكرتك، وستحسدينني عليها.. لا أدري من أين أبدأ لكن أرجو منك أن تؤجلي أية أحكاما مسبقة، وأتركيني أحكي لك من البداية.. تعرفين بحالات التحرش المتعددة التي تلاحق الفتيات والنساء في بلدنا مهما كان عمرالفتاة أو نوع الملابس التي ترتديها، الشباب لا يفرقون في كيفية ماترتديه المرأة، بل يفكرون في جزء واحد وحيد يتيم فيها وكأننا نُعاقب لكونه جزء طبيعيا منا، وكنا سويا قد تناقشنا من قبل إزاء إحدى حالات الهوس الجنسي الجماعي تلك في أحد الأعياد، وكنت أختلف معك بان الصغار من المراهقين غالبا هم المتهمين ولكنك تفوقتي علي كعادتك دائما وقلت لي أن التحرش غير قاصر على الصغار وأن الغالبية هم كبارا ولديهم الزوجة التي تلبي لهم حاجاتهم الجنسية وقتما شاءوا. وهنا مربط الفرس، وحتى لا اطيل عليكى فقد تعرضت ولمدة طويلة للتحرش عبر الفيسبوك، رجل مكتوب على صفحته أنه

طبيب ومتزوجا، دهشت وحزنت أيضا، لكنى قررت أن "ألعب" معه على طريقته، أرجو أن تطيلي بالك علي حبيبتي."متزوج ويعول"هاهاها.

في البداية ظل الرجل وبمبالغة مكشوفة وكاذبة، يشكر في رقة وواقعية بوستاتي أول الأمر ، ثم أبيات شعري، ثم انسحب إلى ملامح وجهي "وجمالي" الذي يحلم به منذ كان مراهقا، وإنه لا يتمنى شيء في الحياة أكثر من أن يضمني وأن أضمه.. فقط..هاهاهاها وأنه يستحلف بينه وبين نفسه، أنه لابد محقق رغبته في المجيء، لرؤيتي أينما كنت وإنه لم ولن يتركني حتى يحصل على رائحتي.. هاهاها والله حبيبتي هكذا قال وهكذا استهان جدا بذكائي، وجعلني أمام نفسي أبدو كطفلة مغيبة أو عاهرة.. غضبت وثارت كرامة الأنثى في.. واستعنت بالصبر، وركزت معه جدا على غير عادتي..

المهم ذكرته أن له زوجة وأبناء ووظيفة يحبها، فلماذا الخيانة؟ أم هي "طفاسة" رجال؟!.. علق على السؤال الأول بأن بيته وزوجه والجميع لا ينقصهم شيئا، وأنه هو فقط المسكين من ينقصه أشياء

كثيرة. قلت له مثل ماذا؟.. تتعجبي صديقتي حين أخبرته أن زوجته رهن إشارته كما يقول، فيحصل على احتياجاته البيولوجية أي وقت فسألني بغضب: التجديد سُنة الحياة يا أجمل دكتورة.. هل تستطيعي قضاء سنوات طويلة من عمرك بنفس الفستان أو البدلة؟هاهاهاها.. والله هكذا قال وطبعا إمعانا في إغاظته قلت له: طب نفرض أن زوجتك أيضا تريد تغيير"الفستان"بعد كل هذه السنين، أليس لها الحق هي الأخرى في بدلة أو زوج من الأحذية الجديدة أيضا؟ أم أن سُنة الحياة لا تسري على النساء؟.. قال: لو هي فكرت مجرد تفكير في هذا لأطلقها، وألقي بها فورا خارج البيت بعيدا عن حياتي وحياة أبنائي..

أعرف صديقتى الجميلة أنه الفصام الذي يعيش، ويعشش في رؤوس أغلب الرجال في مجتمعاتنا الذكورية، مهما اختلفت أيدلوجيتهم، فاليساريين والليبراليين يقتنعون بذلك تحت راية حرية الجسد وحرية المرأة، والمتدينون لهم أربعة وما ملكت أيمانهم، وحتى بعض الأساقفة والرهبان يتجرأون على استباحة الأجساد لأنفسهم، وأنت تعرفين ذلك الكهل"الحقير" والذي لا تحبين مجرد سيرته، ذلك

الذي كان على رأس حزب سياسي يساري في السبعينيات،كيف كان أغلب ما يشغله هو الإيقاع بالبنات اللاتي أحببن هذا الوطن، وحلمن بوطن جميل، وقرَّرن بجرأة الإنضمام للعمل الحزبي أو مجرد تأييد مواقف حزبه، تعلمين أن له العديد من الأبناء مختلفي الجنسية، حتى أنه له إبنة من الخادمة الفلبينية التي أحضرها لمساعدة زوجته أثناء حملها.

المهم قلت له الكثير ؛ منها أنه او إن كان مثقفا أو يدعي الثقافة، أحببت أن أخبره "إن القراءات الجوفاء التي قرأتموها في حياتكم قد باعدت بينكم وبين الواقع، وإن إحترامكم لأنفسكم هو احترام شكلي ومكذوب.."

وقتها قال لى غاضبا متفاجأ: هذا كثير يادكتوره.

فسألته: طوال الايام الماضية ماذا كنت تطلب منى أو تريد؟

قال: أنا لا أفهمك.

قلت له: أنت تفهم وتكذب، طوال الأيام الماضية كنت تتحرش بي بمنتهى البساطة، مستهينا بعقلي وبشكل دائم، ارجع لتلك الألفاظ

التي بطَّنتها بإطراءك لكل ما أكتب .. هذا في البداية، ثم قصة شعري وملامحي، حتى طلبت مني أن أفتح كاميرا الجهاز لتراني.. أنت لم تتفهم مع من تجرى حوارك ياطبيب الأطفال.

قال بعد وقفة صمت ظننته مات: " هاهاها.. أهو عيب أم حرام.. أن يتحدث اثنان راشدان ويعبرا عن مشاعرهما وعما يرغبا به.؟"

وحتى لا أطيل عليك حبيبتي بعد أن عبرت له عن اشمئزازي وضيقي من تصرفاته المفضوحة، والتي لا تعمل أي حساب لذكائي وعمري وخبرتي بالحياة قلت له:

طلبك ليس عندي يا أفندم.. لديك زوجة وأطفال ويجب أن يكون لديك قبل أسرتك ومهنتك القليل من الأخلاق. وإنه بوصفه متعلم وطبيب يفعل تلك التفاهات المريضة، فماذا يفعل المراهق..؟ وهل نلومه على جهله وتسرعه في التمتع برجولته سلفا، قبل أن ينبت شاربه أو تنضج رغباته؟..

هددته بأني سأبلغ عنه النقابة وسأفضحه، فخاف وبعدها عملت له بلوك.أتركك الآن فلدي حالة ولادة.. وغالبا في بنوتة.باااااي. سأزورك قريبا في عطلة نهاية الأسبوع.

لم أضحك بصوت مرتفع لهذه الدرجة من قبل"تلميذتي النجيبة أنت يا سهى"

المرسى...

نعم .. يوجد ماتحلم به عند المرسى الأخير، فأسرع الخطو الآن وسأرشدك..

فالداخل لهذا المكان يولد ويبعث من جديد، ويخلد أيضا..

عليك فقط أن تستعين بالإشارات.. فهي رسائل محققة، سوف تدلك، فلا تضيعك الطريق... بضع ليال ستسيرها وحيدا ملهوفا وجلا، إلى أن تأخذك خطواتك يم النهر، فتكون عند بداية الطريق، وتكون قد تجاوزت أولى إشاراتك، بعدها يزورك الأمان قليلا، وتسير، تسير، حتى يصادف ناظريك أعناق لأشجار سامقات، سوف تلقي عليك التحية ، نعم.. تحييك، هي تعرف بمجيئك، سترد لها التحية، وتسير أياما أخر، لا تمل من طول المسافات أو بعدها، وسيكون مدخلك للوعد قد دان، واقترب خطوك من البحر..

وحين يصلك هواءه، كآخر الإشارات نحو الوصول لمرساك، سوف تهنأ روحك، وتختلف ملامحك.. ستصير بقلب طفل، فحبيبك

مثلك، ينتظرك منذ عقود، يجلس محتضنا، أشواقه التي يحفظها ويخبئها لك، ويصطفيك بالبوح بها، متأبطا صبر الانتظار، لتحقيق رؤاه، متأملا في قرب اللقاء مثلك، حالما بالفرح الذي سوف تصبح غارقا في نوره معه..

ذلك النور الذي سوف يقهر ظلمة المكان، ويبدل وحشته أنسًا، يتمعن في ذكر صفات محبوبه،كلماته، ووعوده..وحين وصولك، سيكون كلاهما قد ذابا في واحد، فما عاد لأحدكما الفراق بعيدا عن نصفه الآخر، ويتجسد البوح، يصير له ألوتن قزحية، كما أن للبوح وجع، لو لم يتحقق، فلا سلاما لكما أو سكينة..

لن تطرق بابا، بل ستجده مواربا منتظرا..لقدومك.

لست صيادا

قال: أمتطي - لأجل حبك - أعلى الموجات والأسوار حبيبتي، كأمهر اللاعبين.

- وأنا جدراني أيضا كالموج عالية وكوخي ليس به سوى باب سحري واحد يفتحه قلبي بشفرته الخاصة

ثم اردفت في تخابث طفولي: واللصوص أيضا لا تحوشهم عِلُو البنايات.

قال ضاحكا: لا.. فأنا لم أعتد السرقة يوما حبيبتي، لكني أفخر بسرقة قلبك، فقد سمعتك حين كنت تبوحين لبنورتك السحرية، قلت هذا وأكثر، وأظنك لا تكذبين.

قالت بعد أن زفرت في قلق: أنا لا أحب الكمائن، لم أكن أبدا فريسة.

اقترب منها وأمسك بكفيها ، وهو لا يزال يخوض في الماء، قال: لسْتُ كمينًا ولستُ صيادا، فأنا عاشق، روحٌ تدعوك للفرح،

للنور.. أغرقك في عسله، وتغرقيني معك.. نصير روحا واحدة.. أنا كمن اكتشف سموات جديدة لم يعرفها الناس، أهيم تحتها ، في ليلي ونهاراتي، أتزود بالذكرى، فتشف الروح، تتجلى، تهتز رأسي وجسدي طرباً، من نوع خاص، تتفتح أمامي ورودك، وأجدني في اللامكان أرقص على نغمات نداءاتك لي، ونداءاتي لك، بالحضور فتأتين، وتتم المصالحة بين البدن والروح.

قالت: أعرف أن العشق فضيلة، قد تبعث عزمي العاجز المكبل منذ سنين، قد يسكن به الفرح بداخلى المغترب عمن حوله سيدي، شدتني رقة كلماتك، ودعتني لموكب كله أحلام، أخرج من حلم إلى آخر، رغم دوائر حيرته، لكنه يؤنسني يأخذ بيدي ويبشرني وكأني في انتظار جائزة العمر.

قال: لقد غيرت كل عاداتي سيدتي،فمنذ حلمت بك لم أزر قبر أمي وكنت أزوره كل صباح أتزود من ذكرى حنانها، وأتخيل صدرها الفسيح يضمني، فيزورني الأمان، وأقدر على مواصلة عبث اليوم وصقيع غربته، كما كنت معتادا كل صباح أن أنثر الحبوب أمام شجرة

حديقة منفاي، لتنزل الطيور تباعا آمنة تتزود من مأدبة النهار اليومية، لم أنثر لها شيئا منذ زارني الشوق لملامحك ودفء ضمتك، وطمعي في أن تربتي روحي المتعبة من البحث عن زادك.

قالت: حين كانت النسائم تداعب خصلات شعري المتمردة،في ليالي عطشى..كانت تهف على أطراف أذني، وترمي بسمعي إلى البعيد، فيصلني صوتك ممزوجا بطراوة تغمر روحي، أقف هنا تماما كما أقف الآن ، أغرق في همهمة مكتومة، ويتوه رأسي وعقلي وروحي، كالمتشردة أستجدي أن تأتي، لكن دون نداء خاص مني، وقد وصلك ندائي سيدي، وفرحت وكتب لي أن أكون ضمن الموعودين بالبعث، فتعال فقد كنت أكتب رسائلي إلى الغيمات الحبلى بالفيض، علها عند تتابع زخاتها، أرى ردا لمكتوبي التائه، تتحقق نبؤتي، وأنال الحظوة بالوجود في حضورك، لم أكن أتمنى سوى قدر ضئيل من السعاده، بحجم كفي وكفك، صدري وصدرك، حتى يكتب لها البقاء فتدوم، ولا يلحظها محروم غيري.

قال:كان نداءك معلقا شهابا متألقا في منتصف السموات، وحين راح نظري نحو النور، سمعتك بشغاف القلب.. سمعتك، أدركتُ أني مخبؤك وأنك مخبوئتي، وحلمت بك معي، نمسك بشعاع النور معا، نور شفيف وتابعت بعيني، في الجهة الأخرى، وجدت البحر ووجدتك، صعدتُ سفينة شغفي، وأتيتُكِ، فلا توصدي نوافذك وأبوابك، دعيني كشمس الضحى نورا وسلاما وبردا لك، تلقفي خيوطي، وعبئيني في ثنيات روحك فلا أبين، فما عدت سوى جزء من نفسك حبيبة الروح فحبك أخذ مكان خساراتي.

بيني.. وبين ذاكرتي

ليس صعبا أن أتقمص دور ذاكرتي، ومجريات حياتها بالاختفاء داخلها والمراقبة لكل ماتفعله ليلها وصباحاتها. كنت أحدث نفسى كثيرا بصوت مسموع.. يعمل نصف عقلى المرتبط باستدعاء الذاكرة، الذكريات فقط هي ماباتت حية، يقظة متجسدة أمامي.. شيء ما أثار داخلي، فأخذتُ أستدعي لحظات موعدي الأول معه.

أختبئ داخل الركن الذي استطعتُ ثقبه بحذر داخل رأسي.. أصيخ السمع وأرقب الارتعاشات الصادرة عن انفعالاتي، وأكمل باقي الصورة من معرفتي السابقة بخيباتي. ألعن البراءة وأسب السذاجة في بادئ الأمر .. الآن هي هادئة لذا حمدت الله أنها لم تلفظني في لحظة جنون حادة.

هي كما هي منذ عرفتها، تتحدث في صخب طفولي، أو تغرق في صمت موجع. أقبع هادئة بداخل جمجمتي، أحشر نفسي بين تلافيف

عقلي، يصلني خدر، ورغم دفء الدم لكن برودة الخواء طالت أعضائي.

الحب.. مزيج من الشغف والألم والعذاب.. نتألم أثناء بحثنا عنه وافتقادنا له..ونتألم للحرص عليه، والتمسك به حين نجده، ونرتعب من فقدانه، ومن هنا نبدأ مشوار الترنح، بين التشكيك والتصديق، بين الثقة في النفس أو فقدانها.

لماذا كلما حاولنا أن نتعرف في لحظة كشف عن سبب كل هذه الخيبات والفشل، في الإبقاء على العلاقة نقية عذبة كما بدأت، يعلو ملامحنا القلق؟.. نتوه بين لحظات التعارف الأولى، بهمسها وجمالها ورقتها وفتنتها وتفصيلاتها السريالية المدهشة والمحببة في آن، لماذا يترسب الكذب واضحا ساطعا شفافا وحيدا في قاع الروح؟.. يصنع جسدا شبحيا أسود يغلف كل الرجال.؟ .. أيعقل أن كل الرجال يكذبون؟.. كلهم؟!.

أعرف أنه حين تراقب الضباع السماءَ، ليس تضرعا أو محاولة منها لاستشفاف حالة الطقس، بل تبحث عن النسور لكى تستدل منها على مواقع الفرائس المتوقعة.

أو ليست رؤية الأشياء والإحساس بها هي الاصدق..؟

ألا نكتفي من لعبة التخمين أبدا...؟!

أليس هناك دائما خطا فاصلا بين المقبول وغير المقبول..؟!

ألا يقولون أن الحقيقة جميلة دائما..

فلماذا تملؤنا الحقائق بالأوجاع..؟!

الفوز لايكون مضمونا دائما، نعم فى الغالب نحن نسمع أنفسنا، ولا ننتبه للرسائل التي حولنا، لا نريد أن نعرف أنها طبيعة الأشياء.

الحب.. هل يوجد مايسمونه بالحب؟.. نعم جربت مشاعره.. الحب الطبيعي بين أى رجل وأية امرأة.. مررتُ بنفس المشاعر، ووصلت لنفس نهاياته.. النهاية تأتى عاجلا أو متلكئة، وينتهى الحب.. هل الحب مصيدة من طرف للايقاع بطرف، أو أطراف

اخرى؟.. من أجل أشياء كثيرة كأن يدفء غربته أو يؤنس وحدته، ويخوض التجربة لذاتها.

لاشيء مجاني.. حين نحب، فالألم ومشاعر الحب والغضب يسيرون دائما يدا بيد لايفترقون.

نحب مكانا أو عطرا أو صنفا من ألوان الطعام نستمتع به.. نريده نتذكره بلطف.. نحب أغنيات الحب العذري، المثقل بالود والسهر والدموع والهجر أو الرغبة فى الثأر، أغنيات السهر والدموع واللهفة والشموع تخاطب المراهقين والمراهقات يحفظونها ويمارسونها في الغالب، ثم تصبح من الذكريات المضحكات، ويسمونها مشاعر الحب الأول.. تعلّم داخل مشاعرنا كمخالب لا تريد ان تترك فريستها.

الفشل هو ما يشعرنا أن حياتنا لم تكن في النهاية سوى انتظار وراء انتظار، وكأننا في زاوية مترية أو غرفة ضيقة، نرى فيها في الصباحات عكس ما كنا نراه في المساء.

تتزايد رغبتي فى تناول الطعام، وتحاصرها الرغبة فى النوم وأحيانا البكاءأيضا.. إحساس باللامبالاة أخذ يزحف أمامي ويحاصرني، وأقضي أغلب وقتي في الغرفة التي استأجرتها في بيت الزوجية.

نحتل مساحة من الزمان ومن المكان.. نتحد مع الكون بتعارفنا على العديد من البشر، منذ وجودنا الأول ومجموعة من المشاعر والأحاسيس، منذ أن كنا أطفالا ويافعين، يغيب عنا من يغيب ويأتي إلينا أناس جدد فى أعمالنا وشوارعنا وبيوتنا.

نظل أحيانا محتجزين داخل إطارات لصور نقشت في أدمغتنا، تبدو كالوشم فى ثباتها.. نختار بين المعرفة والمعروف في عالمنا الموضوعي أو الذاتي..

لماذا أنا دائمة القلق، تسكنني نار الرغبة في الرؤية، في الفهم وفي الفعل، في حين أني ليست لدي أوهام حول العالم الذي أعيش فيه أو الشخوص الذي أتعامل معهم، أيا كانت العلاقة التي تربطني بهم، وأصبح إغراء الرحيل شمسا، وسط جليد يحاصرني، تدعوني أن أخرج

إليها، أنفض غبار صمتي، وانحباس رغباتي العادلة، وتخرج معي كل الشياطين التي اعتادت أن تتلبسني.

نعم.. فليس هناك أفقا محدودا للأحلام، ولا أعترف بسقف للتوق والأشواق، بكل مسمياتها ومضامينها. سأهجر صمتي الذي كان مفروشا أمامي بساطا، ألصقت قدماي عليه بمسامير ومدقات واهمة، فبعد كل حدث جلل يتسع القلب وتزداد قدرته على الاحتواء، فمن الألم نستكشف الكثير عبر انكسار الخاطر وهزيمة الأحلام، والملل الذي يجرد الروح من الحياة، وتصبح متيبسة جوفاء خاوية أو تكاد، فلم يعد ثمة الكثير من الأريج في بستان أيامي المثقلة، علي الآن أن أخرج قبل أن تصبح البقية الباقية من روضة روحي خرابا يابسا، فالفشل الذي يشعرنا في النهاية أن حياتنا الماضية كلها لم تكن أكثر من انتظار ما لا يأتي.

تتضح كلها أمامي الآن كالثمار التي أثقلها النضوج فسقطت، لن أساءل نفسي مرة ثانية متى يجلو الهم عنى، نعم بعد أن أهدتني تلك العلاقة الطويلة اليتم، ولا شيء سواه على المستويات كافة، ورغم أن

الحزن كالرب موجود في كل مكان، لن أكون من أتباعه بعد هذه اللحظة الشفافة الكاشفة، فالباقي ليست بكثير بعد، لكني لست نادمة، فالحياة تعطي الفرص أحيانا.

في بداية أي مغامرة رائعة تكون المعنويات في السماء. الحكي يعيد الذكرى.

كان جليد الصمت والملل تتسع رقعته وتتماسك جزيئاته امامي بطول وعرض الأماكن التي تجمعنا معا، كجلمود صخري تعصى علي محاولات كسرها، ناهيك عن عدم إقدامي على أية محاولة جادة، لفهم تلك التفصيلات التي أحياها، وبالتالي لم تنطق في القدرة على تغيير ما يقلق ويعثر ويمرض الروح، فمع كل صباح تتسلل خيوط الصبح تطل على أرقي، وتملأ بنورها السماء متنهدة اسمعها من خلف زجاج النافذة، يرتمي ظلال الأشياء حولي فتهز رأسها الذهبية، وترمي بسؤالها: أليس الظل يشي بوجود الشمش؟

تبدأ الاسئلة تحلق أمامي وحولي، في دوائر وجودية وهمية متتابعة، تخنق الحيز المكاني الذي يأسرني منذ سنين أكثر فأكثر.

لم يفت عليّ يوما دون أن أفتش بعقلي ماذا ينقص وما تبقى علي لتجهيزه لقائمة الرحيل التي أعددتها.. وبإصرار محكم هذه المرة.

اتهمتني صديقاتي بالغباء وقلة الحيلة لطول استمرار العلاقة، رغم أنهن يعلمن أني لست كذلك.. أيضا لم أشأ مشاركة إياهن، ولا إحدى شقيقاتي بقراري.. فقط زميلتي "ماجي".. من تناقشتُ معها وأفضيت لها بسري، ولم أكن أعلم بكرم تقديرها للثقة بيننا، والتي تفاجئت حين أخبرتها إني أستطيع الذهاب بالسيارة وقتما تشاء إلى شقتي الجديدة.

بالفعل عدة مرات ذهبنا، في صحبة أصغر أبنائها كحجة غياب.. حين ننضج نصبح نحن محور أحلامنا ولا نربط تلك الأحلام بالآخرين. فلفترة طويلة من سنى الحياة تظل الأحلام _حرفيا_ محجوزة للأولاد. الكثير منا يعيشون داخل شرنقة مؤبداتهم.. وفجأة يريدون استعادة الدهشة.. يتخوفون من الجديد أيا كان، حتى ولو كان تغييرا للأحسن.. الخوف من الجديد من مجرد إعادة النظر في علاقاتنا بمن معنا.. الأغلبية يسورون علاقاتهم الكهولة الكئيبة كالأمر الواقع كحبل سري لا فكاك بعيدا عنه إلا للموت.

الآن؛ امتلأ وعاء إدراكي، كصوت ناي أليف يبوح، ينعي، يتشكى بأسي، فيجري دمعي، لكن ليس ندما.

أستغربتُ كثيرا حين لمست مدى إيماني بالرسائل الكونية التي يجب علينا أن نستدركها بوعي.. من هذه الرسائل جملة كتبها أنطون تشيكوف قرأتها وأنا يشغلني توقيت القرار، وكأنني ألمحها للمرة الأولى على الحائط: "

حين لاتحب المكان استبدله

حين يؤذيك الأشخاص غادرهم

حين تمل ابتكر فكرة جديدة

حين تحبط اقرأ بشغف

المهم في الحياة ألا تقف متفرجا"

وكأنه نسي أن يقول "قبل أن تجن".. أخذتْ هذه الكلمات تطن برأسي ليل نهار.. بدأت أسمعها بصوتي، وبصوت أتخيله للكاتب الروسي الكبير.

رسالة أخرى تسلمها عقلي، واستمسك بها.. كنت في عزاء أحد الأصدقاء.. عادةً لا أتواجد في أى عزاء، لكن الفقيد كان صديقا قريبا لقلبي.. عيبه الوحيد أنه لم يملك القدرة على ترك أو الابتعاد عما جلب له المرض، وأثر على نفسيته حتى فاجأته سكتة قلبية.. لا يهم ماذا كان هذا الذي قتله وهو أصغرنا، لكنه قدم لنا ولي على وجه الخصوص، هدية بوفاته المفاجئة تلك.. ألا أستمر في ما قد يقتلني كمد.. رحمك الله ياصديقي .

جلستُ ساهدة، أرتبُ فُتاتي ومزقي، لم أمنع رأسي من أن يتسكع داخل سنوات طويلة عجفاء، وكأن رأسي اصطدم بالقمر فجأة، فأضيء كل شيء حولي، وكأنه العرس ويتضح دون سابق إنذار.. فالضحايا ليسوا بأفضل من مضطهديهم..

الآن؛ لن أتهكَّم على طول غفلتي. فالأوان لم يفت بعد.

خفة الهواء تعود اليها

تمشط شعرها بعد حمامها الصباحي، لا يزال يحتفظ بحريريته رغم "الفضي" الذي استبدل لونه البني، تعبث أمام المرآة بأطراف أصابعها في خصلات شعرها، من جهة إلى الأخرى، وتبتسم لفشلها في الحصول على أي أثر للون السابق، تلفُّ شعرها الطويل في كعكة مستديرة خلف رأسها، وتنشر المنشفة.

قلقة هي ومسهدة، منذ عدة أيام تبحث عن شيء ما، وكيف نجد مانجهله مهما طال أمد البحث عنه.

تمسك بالقلم عدة مرات في اليوم وتتركه بنفس عدد المرات، غريب عليها ذلك الإحساس الغامض، هل تريد أن تكتب؟.. هل تريد النزهة على شاطئ البحر القريب؟.. ترى ما الذي يستبيح إقلاقها وتسهيدها المعذب ذاك؟.. ليس لون الشعر أكيد، فلم يتلون بين يوم وضحاها على كل حال، أقسى الحالات على النفس، تلك التي

تشدنا للبحث عما نجهله وهو قابض على أعصابنا وأوقاتنا وحتى في نومنا يطاردنا كعدو.

تنبش في تجاويف الذاكرة ساهمة وهي تصنع كوب القهوة الصباحي، ربما يكمن السبب في تلك الصورة التي أرسلها لها أحد زملاءها وقت كانوا بالجامعة، تقبع مع بعضهم داخل القفص الحديدي راسمة علامة النصر بكلتا اليدين،كانوا مبتسمين يقفون على أرض الحلم، مصدقين، محلقين، تكاد تنبت لهم أجنحة، فيحلقون فوق الواقع أكثر وأكثر، يطيرون في خفة الهواء، رغم ما تحمله صدورهم اليانعة من هموم تكبر أعمارهم.

لم يقتنع رأسها بكل ما يعرضها عليها، كاحتمالات لمساعدتها في كشف سبب القلق المبهم.

تأخذ كوب القهوة وتزفر بشكل محايد يعكس حالة التواه، التي تعتريها.. تتجة إلى مكتبها، كانت بعض نثارات الجُمل تعيش في فوضى بطول الصفحة، فقد اعتادت أن تسجل ما يجود به وحيها الخاص، هكذا كنقاط لا رابط بينها، حتى أنها كتبت على جانب الصفحة كلمات

إحدى الأغنيات لأم كلثوم"أنا لن أعود اليه مهما استرحمت دقات قلبي"..

أكدت لنفسها ليلتها أن عقلها وقلبها ما عادا كالسابق يتساهلان مع من لا يستحق شغفها وصدقها، فقد دربتهما على التشفير والإلغاء منذ مدة، قد تكون تلك الكلمات هي بداية الخيط الذي لو فككت كرته تظهر لها منطقية تلك الحالة التي لا تريد أن تتركها.

منذ عدة أيام ألقت إلي مكتبها بتحية الصباح كعادتها، وقد بدأت مخاوفها المؤرقة تنزاح قليلا، تتصفح بقية الأسطر براحة أكثر مع ارتشاف قهوتها،"غربتي تتشابه مع غربة مسلات الأجداد المصرية القديمة، التي سرقت ونهبت لتملأ ميادين بلدان أخرى، تقف وسط ميادين غريبة باردة مثلها..

جزء من روحي اعتاد العراك معي كمراهق تائه لا يشغله سوى تمرده.. وكأنني في رقصةٍ طقسية، أحاول البحث عن مصير أريده.. ولا أدري لم فُطِر العقل على الولوج للماضي كثيرا؟.. هل نقدر على تقديم

استقالاتنا لهذا الحاضر المعطوب؟.. لماذا يعيش أغلبنا داخل دوائر الماضي المغلقة؟.. وكيف نستعيد الدهشة من جدبد ..؟

عندما ننضج تتضح الرؤى أكثر، نصبح نحن محور أحلامنا، ويفك ذاك الاشتباك القديم بين ما نريده ونوده ونحلم به، وبين من كانو يستحوزون على كل كياناتنا ، أوقاتنا وتفكيرنا، وحركتنا اليومية في الحياة لأجلهم حبا أو قصرا.

لكنها أمام تلك السطور الباقية استردت جلجلة ضحكتها، التي اعتادتها، وكأنها حصلت على جائزتها بعد قلق تلك ألأيام: " كنت جاهزة لأرافقه حتى الباب.. أخرجه براحةٍ، وأودعه بابتسامةٍ، يكفيني أن يذهب بعيدا، لكني سأصفع بابي ولن أتمنى له السلامة."

زفرتْ في راحة مبتسمة، وظلت تتراقص مع أنغام الموسيقى، تردد في همسٍ كلمات "جبران":

" التحدث مع شخص لا يعرف المنطق، أشبه بإعطاء الدواء لجثةٍ."

رائحة الجلد المحترق

كان أنفى يدلني إلى المكان، الطرقات الطويلة المتعرجة، التي لا تنتهى كنت أقطعها بسرعة، وشئ كالهدف الثابت يشدني، يستحث خطوي، أما قدماي فقد حفظتا الطريق.

بداخل العنبر الكبير كانت العربة الزجاجية ذات القوائم المعدنية والعجلات، تحمل ملء طابقيها لفائف الهدايا ومعجون الحلاقة وكريم محلى للحلاقة، وماء عطري أيضا لما بعد الحلاقة، كلٌّ في لفافة، يشتبك طرفاها بشريط حريري أحمر، نفس النوع الذي تتأنق به الكلبه الجريفون البيضاء، بحزامها الجلدي الفاخر وشعرها الكثيف يخفى عينيها، وهى تتمسح في أقدام السيدة التي كانت توزع الابتسامات مع اللفائف على الجند، تتسمر لثوان عند كل سرير تنظر في نجومية للمصور حتى يلتمع الفلاش فى يده.

تمهلتُ للحظات حتى انتهى موكب سيدات المجتمع بمصوريه وصحافييه، تقلصت معدتي ثانية وشق عليّ الابتسام، وأنا أومئ بتحية الصباح للراقدين أمامي. ترد عليّ عيون الرجال فى وجوم مغترب.

تبلورت أمامى رائحة الجلد المحترق، وأصبح لها ملامح وأبدان.. رائحة الجلد الذى لم ينطفئ لهيبه بعد. امتد الصمت حولى، سلسلة حديدية كادت أن تطوق عنقي.

فى رحلاتنا المدرسية حين كنا نتزاحم حول أهرامات الجيزة، وخصوصا الهرم الأكبر نتلصص على ما تركه ملوك العصر الغابر، لم أستطع وقتها دخول هرم خوفو، فرائحة الموت والقِدم، طغت علي الشموخ وانتصرت على عظمة التاريخ، وبدأ صدري يفرغ بالونات هواءه، فأخرجونى ولم أعاود دخوله بعد ذلك قط.

لكن هنا اعتاد أنفي على رائحة الحريق، وبرغم الاختلافات المفترضه بينهم جميعا، إلا أن ملامحهم باتت متشابهة، شوه النابلم وحريق الحرب الوجوه الشابه، الأعين تتحرك وتلتمع خلف دوائر منتفخة، الوجوه متورمة، البقع الحمراء الفاتحة والداكنة تنتشر مع

درجات من الهالات السوداء، القشور الجلدية التى سقط بعضها، وتبقى البعض الآخر في تشققات، وخصوصا على الذقن كتلك التي يفعلها الجفاف بالأرض.

يلقى أحدهم بمزحة فينتفض قلبى من القهقهة، التي يكتمها الرجال خوفا من الالم، ورؤسهم حليقة، تلفهم السمرة وندرة الكلام.

الرائحة كانت تسير علي قدمين حتى نهاية الردهة، عشرون سريرا قبالتى، تفشل كل نباهتى في التعرف عليهم، إلا من أرقام أسرَّتهم أو مكانها في العنبر.

كان طعام الإفطار قد أحضروه، في انتظار وصول بقية زميلاتى المتطوعات، لنقوم بتوزيعه وإطعام الجنود.

بدأتُ فى تقطيع الخبز المغموس، وأضعها في فم "مصطفى" حسب قدرة فمه على الاتساع، وقدرته أيضا علي البلع. بين لقيمة وأخرى كان يئن أو يصرخ، أو يتهالك نفسه فاتحا فمه مستسلما، وقد أغمض عينيه، فيصبُّ على معدتى ألما يكفيني لأيام طوال.

بعد قليل قال: اللقمه مش عارف أبلعها.. قطعة طماطم ممكن؟

قلت له متخوفه: لكن..

فقاطعنى بحسم غاضب: مش مهم.

أمسكت بالسكين أمزق ثمرة الطماطم، وكأننى أبقرها. مزقتها قطعا صغيرة، علّنى أمزق معها حيرتى وعلامات الاستفهام الكثيرة التى يعج بها رأسى. ناولته قطعة فأخرى بالشوكة، سال بعض ماءها مع لعابه إلى ذقنه الملتهبة، فصرخ قلت له: ألم أقل لك؟

فى هذه الأثناء كان صراخ رئيس القسم يصل إلينا عاليا، مع تزايد الضجيج خارج العنبر. الكل يجرى فى كل اتجاه، أصوات لأشياء تجرُّ، وصوت عجلات أسمع صريرها ترج الأرضية.

خرجتُ أستعلم عمّا يدور بالمستشفى العتيق، وصلني صوت أحدهم: سيارات أخرى آتية.. الجرحى أصبح عددهم أكثر من الأسرّة والأماكن.

أسمع صفق أبواب العربات العسكرية وناقلات الجند، تُفتح وتغلق فى عجلة، المحفَّات يحملها العاملون، ويسير من المصابين من يقدر على السير، يتحامل حتى يصل حيث عنبره.

تمر أمامي صور سيدات المجتمع بفلاشاتهم وابتساماتهم. اتجهت إلى جندي كان يحجل بقدم واحده.

قلت له: استند عليّ لا يهمك.

أخبرتنى تقطيبات وجهه الشارده، وكزِّه الدائم على أسنانه أن هناك شيئا آخر غير الألم.. كان فى نفس طولي، أعطيته كتفي وذراعي، وأنا قلبى يكتم بكاءه، وصل إلى مسامعي أسماء مدن القناة؛ الدفرسوار، الاسماعيلية..

سألتُ المُصاب بعد أن استند عليّ: من أين أتيت..؟

ردَّ في وجوم مثقل دون أن ينظر إلى وجهي: من جهنم الحمرا.

الفراشة

كان الصخب يتزايد حولها.. يحاصرها.. في دهشة طلسمية، صعدت الفراشة إلى الأعلى تصنع بجناحيها دوائر حلزونية حائرة، لكن في خفة، لسعها صخب الضوء ووهجه، ارتابت، حارت،كمشت جناحيها، ثم خبأت جسدها الهش بهما، لمحت اللفافة القطيفية الغريبة عن المكان، طارت حولها ترفرف برفق، فلامست دفئا مستغربا، أخذت تعمل فيها بأقدامها الرقيقة اللينة، تتحسسها بحريرها، من أين يأتي ذلك الدفء المجهول الذي يجذبها لتستند إليه، ويغريها بمحاولة الاقتحام تلك؟..

لم تساءل نفسها كثيرا "لم الرغبة في المحاولة"، أو عما تتوقع أن تجده داخل، أو خلف هذه اللفافة الرقيقة، التي عملت فيها عيونها، ثم بدأت أول محاولات الثقب، بوجل مضطرب في البدء، وعلى نغبشاتها الناعمة الوجلة، أحست بدقات متناغمة تتصاعد لتلامس

رقيق أرجلها، تمنَّت في ذات اللحظة أن تكون عثرت على كنز أيامها المفقود، والتي ادخرت عمرها الفائت تنتظره.

شيئا فشيئا؛ أخذت تصدِّق حدسها، إنه هو.. فعلا.. هو ما ينبض داخل اللفافة ويلامس حريرها.

حديث الروح

سحبتْ المقعد الخشبي، وجلست تنظر لحديقة منزلها، التي ماعاد بها سوى شجرة واحدة، وبعض العشب الذي جفَّ أغلبه ظمأً لطول غيابها. تداعب وجهها نسمة ربيعية حانية.

جلستْ تحادث نفسها التي باغاتتها بالسؤال: من تكوني أنت؟

- أنا؟ بت لا تتعرفين عليّ؟ أنا أمٌّ لزهرات عمري، أطعمتهم حبًّا وكفيتهم حنانا.. تسمعت لهم بقلب محب، تابعتهم يزهرون أمامي، لم يجهدونني، ولم أكن سببا يوما في تعاسة أحدهم.

- لا يكفنى ماتقولينه.. أغلب النساء فعلن مافعلتِ.. من أنت الآن؟

- كنتُ أعمل طوال الوقت، وكنت مجتهدة في عملي ، ومع من أعمل معهم.. أحبوني وأحببتهم، لكن أغلبهم كانوا يستكثرون علي مجرد محاولتي للاستمتاع بحريتي، وأنا أيضا كنت أستهجن نمطية حيواتهم.. نساء متشابهات في كل الأداءات، ورجال يحملون نفس نوعية التفكير الضيقة الأفق، لكني أبدا لم أبح لهم برأبي هذا.

- لازلت تتهربين.. سأغير السؤال إذن، ماذا تريدين من حياتك؟

زفرتْ عميقا وببطء، وأسندت رأسها على ذراعها المثني على سور الشرفة، وأغمضت عينيها. وأحست رغم ذلك بأن ملامح وجهها، قد تجمعت بأسى في منتصفه، وكأنها تستغرب أنها لم تسأل نفسها هذا السؤال من قبل .

تدرك أن التساؤل يحوم حول أشواقها في الحياة، أليس لها أشواق؟ رغبات؟ سلم أولوياتها.. مُزدحم بأشياء كثيرة دونها.

أثر تنهيدة أوجعتها ، غفت ، بعد ثوان تخيلته يقف أمامها في حديقة المنزل الصغيرة نظرت إليه في دهشة، فبادر دهشتها بقوله، وأنا أيضا كنت أنتظرك نفس عديد سنين انتظارك سيدتي، مليكتي ، لازلت لك نفس الملامح ندية.. لا زلت نفس قوامك وحزنك وجراح زمنك الماضي.. كنت فقط أنتظر حضور اللحظة، لحظة البوح.. الآن أنا أتملك مقودها.. تتماوج أمامي كلماتي واضحة أحيانا، وشبحية أحيانا أخرى.. أراها أمامي منثورة بلا نظام، وكأن المدار ماعاد يخضع للجاذبية.. هي أمامك الآن، متوهجة بلا ترتيب، تتراقص ممتنة للبوح

كي يفكّ أسْرها. الآن روحي تتراقص مثل تلك الكلمات، وتتوهج أيضا مثلها ،لا أخفي عليك كلما لمحتك ذُبت شوقا وتراقصت روحي.. أتوق شوقا لضمِّك ياحبيبتي، أشرب خمر دفئك وأذوب.

تتسمع له صامتة، وهو يكمل:

- تهربين من الاعتراف بأشواقك؟فكيف ستواجهينها إذن؟.

قالت : ربما الوقت قد تأخر لإيقاظها، فقد أجبرتها دوما على السكون فاعتادت الطاعة وأدمنت السكون...

- تعنين أنني قد تأخرت في المجيء؟.. فكما حارت الجاذبية في ترتيب كلماتي، فهي أيضا سوف تساعدك في فك أسْر أشواقك، وفي لملمة نفسك وتصالحكما معا.. مليكتي.

أمسكَ بيديها، ووقفا سويا ، وجها عاشقا لوجه، يبتسمان رغم الدمع الصامت.

قال: لنعيد الحياة لحديقتك نملأها أزهار عطرية، ونباتات يدوم ازدهارها، نُسقيها همسا وحبا وحياة، تكون لها مثلنا كل المواسم ما أعدكُ به ليست أشياء كثيرة، ولا مستحيلة، يدي الحنون لن تترك

كفك، سنسير دوما لنفس الوجهة فتعلقي بحلمك كما تتعلقين بكفي الآن.

مطوقة هي الآن بذراعيه يطيرا نحو نجمات تتلألأ، وتتسارع دقات قلبيهما.

تساءلت : أبسبب عذا اللقاء؟ أم خوف مما قد يأتي؟

تفيق، ورغما عنها يتردد صدى كلماته في أذنيها عاليا، قال

- اِلقِ بخوفك بعيدا حتى تتضح لك ملامح روحك، اسبحي معي بعيدا في فضاء لا محدود.. نسبح معا، أو نطير كفراشتين في سماء الحب، فتتصالحين مع روحك تلك التي أهملتِها.. ستعودين كما كنتِ وأحسن، فالمنافي التي نخلقها لأنفسنا لاتدوم إلى الابد، والطائر لابد يرجع نحو وطنه، مُتَّبعا بوصلة ربانية شفافة.. ستعودين.. ستعودين.

نهضتْ، تتسع ابتسامتها لهذه البشرى، ترتحل بناظريها في رحلةٍ ليلية صامتة، حول النوافذ المضاءة، حول بيتها، تزخر بالونس.

أخذتْ شهيقا مريحا: كيف يُحتسب المَرء حيًّا لمجرد أنه يتنفس، ولم يسجل اسمه في صحائف الراحلين..؟!

كمين في لوران

كادت الفكرة أن تكتمل، أجلس أمام المرآة، أنظر لشعري القصير جدا، والذي مشطته على طريقة الفتيان، أزيد "القطف" قليلا بقلم الكحل، ثم أوصل بدقة مابين "العبثة" كما في صور الفنانة "فريده كويلهو" أمسح بقايا كحل الأمس عن عينيّ، الآن لا توجد عندي مشكلة سوى في ذلك الصدر السخي، والذي ورثته عن أمي، ياالله كيف أخفيه؟.. جلست على المقعد المواجه للمرآة شاردة حتى واتتني الفكرة، فقمت في البدء أغلق باب حجرتي، حتى لاتفاجئني أمي وتراني، وأنا أقص كيس الوسادة طوليا، أخفي جزء تحت الوسادة ثم جهزت بعض الدبابيس، لففت القماش بشدة حول صدري الناهد، بشدة آلمتني حتى أصبح مضغوطا، يكاد لا يبين، وقرّبت بين طرفي القماش وثبته بالدبابيس، أتلفَّت يمنى ويسرى أبتهجتُ بإنجازي الصغير، وارتديت فانلة شقيقي وقميص أبي، ثم رسمتُ شاربا خفيفا لمراهق، إلى أن أتى شقيقي الأصغر، يؤكد مخاوفي،

فقد سأل حارس العمارة المواجهة لبيتنا، عن تلك السيارة ماركة الفولكس فاجن، غامقة الزجاج، فأخبره أن بها رجال أربعة، منذ عدة ساعات، نزل أحدهم واشترى سجائره وسأله عني، وأكد لهم أني أسكن هنا.

باتت الرؤية واضحة إذن، فهم منتظرون الفجر لأنهم لا يحبون المجيء في نور النهار.

ضحك أخي على هيئتي الجديدة، ووضعتُ علبة السجائر في جيب القميص العلوي، ونزلنا الشارع، وأنا أستغرب أن أخرج دون حقيبة، والأكثر غرابة وإمعانا في التنكر أشعلت سيجارة في الشارع. وبعد أن غابت الشمس لاحظت سيارة المراقبة توجه مقدمتها لباب العمارة، نزلنا بعد أن سمح لنا أول الليل بالتحرك،

بعد شارعين كان أخي يدق جرس الباب لبيت أحد الأقارب، وقفت بجواره، يكاد وجهي أن يتشقق من ضحكات مكبوتة تريد الإنطلاق، فبادرنا الرجل أهلا وسهلا، هات صاحبك وتعال. أفرجتُ عن ضحكتي ووسط دهشته تركناه ، ومشينا.

كانت الخطة أن يودعني أخي لشقة عرسي القريبة، التي لم يكتمل أثاثها بعد، يتبقى شهر أو يزيد على حفل زواجي، بعد شراء بعض الشموع والطعام، تركني.. وزيادة في التمويه أغلق الباب خلفه بالقفل الحديدي الكبير، وذكَّرني بألا أوقد النور، فالشمع سيقوم بدوره.

كل ما كان يؤلمني ويشتت أفكاري هو صدمة أمي، أتأكد أنها لن تبيت ليلة هادئة، ستظل مسهدة حتى الصباح، أو حتى يطرق بابها زوار الفجر، تتمتم في نفسها أن يبعد عنا أولاد الحرام، وتتجه بالدعاء بصوت مفجوع أن أتزوج وأرحل، لأكفّ عن أي نشاط في الكلية، ويرتاح بالها.

بعد الفجر بقليل، جاء من يعبث بقفل الباب، ارتعبت لثوانٍ، حتى دخل أخي وصديقينا المقربين، في همس يحكي لي ماحدث منذ قليل، حين طرقوا باب البيت، وكعادتها أمي من كانت متيقظة ملفوفة في مخاوفها، فتحت لهم بعد أن أخفت بعض الأشياء مثل خاتم أو نقود، حتى لا تتسحب أيدي أحدهم وتدسها في جيبه كالمرة السابقة، ولما طلبوا الدخول لتفتيش غرفتي، بعد تأكدهم من هروبي، أدخلتهم

حجرتي التي استوطنها شقيقاي مؤقتا، وكانا نائمين نوما قلقا، كمن ينتظر نتيجة آخر العام.

أوقد الضابط نور الحجرة، أخرج أخي مجدي رأسه من تحت الغطاء كعادة نومه، نظر إلى من يقفون صامتين بجوار باب الغرفة، ثم فرك عينيه وهو يلكز الصغير النائم بجواره قائلا:

إحنا نايمين في شارع شبرا؟.

وغطى وجهه، لكن ضحكاتهما كانت مسموعة من تحت الغطاء. بعد قليل أتى عريس المستقبل واصطحبني إلى ميدان رمسيس حيث سيارات السفر إلى الاسكندرية.

أغلب الأقارب لا يهتمون سوى بأمورهم الشخصية، أو بالجلوس على المقاهي والثرثرة في أغلب الأشياء، وحتى في الخوض في بعض خصوصيات الجيران، لكن السياسة عند أغلبهم لها أناس غيرهم، قلة وعي أو عدمه، أم خوف من البطش، أو عله الشعور بالدونية، الذي استفحل، لسيطرة حزب حكومي واحد، له الحق والسبق في التحدث في أمور البلاد والعباد دون غيره،كما أن استقرار

عقيدة "دع الخلق للخالق" متغلغة في العقل الجمعي، فيتضح الخلاف قويا بين من يعرف ويعمل وهم قلة من الطلبة أو العمال والمثقفين، وبين أغلبية شعبية مغيبة، تصير أكثر عداء أحيانا للناشطين.

في بيت عمي رغم حفاوتهم بي، لم أخبرهم بسبب الزيارة، وبعد يومين اتصل ابن عمي، وطلب استضافتي في شقته الفاخرة في حي" لوران " الراقي بالأسكندرية، ونصحني بأنها تليق بلقائي وخطيبي، ومع إصراره وافقتُ، وأنا أشاركه الحس بالفخر الذي سوف يكون أثره طيبا علي كلانا خطيبي وأنا.

كنت أجلس بالصالة المنمقة الفسيحة أمام التلفاز، أمامي الرئيس المؤمن يتوعد المعارضين "حافرمه" .. يالله، إنه لم يكتف بإرتداء بذلة هتلر المجنون الذي حرق العالم لمرض في نفسه، بل يتقمص دوره وأداءاته، يالله.

وفي وسط امتعاضي سرت الرعدة خفية في جسدي، وفجأة جاء خطيبي، ضمَّني بوجل أمام أقارب تعرف العيب، وحتى لا تتناقل ألسنتهم تصرفه بين كل الأهل، ثم همست في أذن زوجة قريبي أن

تصف لي مكانا هادئا قريبا نجلس فيه لأعرف منه، ما الذي حدث في الأيام السابقة في العاصمة، لكنها فاجئتني بإحضار وليمة، وأصرت أن يتناول الضيف "الغالي" طعام العشاء أولا، وكانت قد وضعت بجواري على المقعد الوثير "بيجامة" للضيف بعد انتهاء العشاء، قي حين أعطاني خلسة بعض الأوراق التي أصدرتها بعض الأحزاب، ردًّا على قرارات الحكومة برفع أسعار أغلب السلع في٧٧، لم يتح لي الوقت لفضها، والتعرف على مضمونها فهمست له: بعد الأكل ننزل.

أتابع محاولات تلك المرأة غير المفهومة في إزجاء الوقت، ودرجة التوتر التي تجعل زوجها يروح ويجيء لثوان حولنا دون سبب مفهوم، تعرض أمامي الجاكت الجديد لزوجها. أمسكتُه ووضعته بجانبي وأنا ألح على النزول..

فجأة رن جرس الباب، وكنت على جلستي في مواجهته، دخل أبي، ولما قرأتُ ملامحه، دق قلبي وجريت إلى الحمام، أغلقته من الداخل وبدأت أشعل الأوراق التى خبئتها في جيبي بولاعتي، وكانت الصالة وسلم البيت قد امتلأت بالمخبرين ورجال الأمن، الذين اصطحبهم

أبي إلى مكان اختبائي. بضع خبطات وصلتني على باب الحمام الذي احتميت به، أحاول إسكات ذلك الزلزال الذي تملك ركبتي وأسناني، ولما أنهيت حرق الأوراق، أخذت نفسا عميقا كمن ذاهبا للغوص، أو مصحوبا لغرفة الإعدام، أفكرُ في فرحة اللقاء المقتولة، وصمت خطيبي المباغت والموجع، وشكل أبي أمامي، وصدمتي التي تكبر عمري، خرجت غاضبة وقد تمالكت نفسي بإصرار وثبات.

في الصالة ، وقفت أربِّع يديّ، أتفحص وجوه من أمامي حتى الأطفال، ووجدتني أمد يدي لابن عمي بطلب نقود: "مش عارفه حاروح فين.. هات"

مد أبي لي يده بمبلغ كبير، وسط عرقه وخجله، ضربتُ يده ونثرت النقود على الأرض وسط سبابي. سكتَ واقفا، رأسه مدلى كمشنوق، وأخرج ابن عمي بعض النقود، فخطفت كل ما في قبضة يده، ثم ودون قرار مسبق، وجدتني أخطف الجاكت الجديد الثمين، واتجهتُ ناحية الباب سلمتُ على خطيبي، وقلبي يبكي..كنت أسمع صوت بكائه، اكتفيت بتقطيب ملامحي الجريحة، ووسط رجاء أبن عمي

أن أترك الجاكيت، وأن يحضر لي غيره، تفَلْتُ عليه بغيظ. دون اهتمام لطلبه، لكن الرغبة في عقابه، كانت تتملكني.

اتجه رتل السيارات التابع للمحافظتين، في طريقنا إلى القاهرة، انظر من النافذة، ألمح لافتات الطريق تودع المغادرين على الطريق الزراعي، "مع السلامة"

من ثرثرة وحكايات المسؤلين في مكان الاحتجاز تأكد حدثي، ومخاوفي، وتكشفت أمامي أجزاء خطة الكمين الذي ألقيا بي داخله.

عروس البحر

أراح السلة المصنوعة من جدائل الخوص بجواره، أخذ ينفث من سيجارته متلصصاً عليها.

منذ الصباح الباكر و هي تتجلي، تمسك ريشتها وقد أبعدت عن رأسها المتاعب و مسحت عن نفسها كل أثر لشجون أو معاناة. ألقي هو بفم السيجارة في الماء. أشعل واحدة أخري. جلس القرفصاء و استند إلي بعض الصخور.

غمست هي الريشات في قوارير الألوان، فأبدعت في نقش البحر و زانته بالزبد الأبيض الشاهي و أركبته ظهور الموجات.

أخرج هو سن الشص من السلة، و أخذ يعجن شيئاً بيديه. سكبت هي كل ما لديها من درجات الأخضر و الأزرق، فبرقشت صفحة الماء، فرشت عليه نور النهار، تلألأ البحر بدرجات التركوازي، في ليونة متبختراً في مساحات تشكيلية أخاذة.

مد بصره يستكشف البعيد. البحر أمامه يمتد بشرائط عريضة من من درجات الأزرق، تتلوها شرائط أفتح فأغمق.

الرمال البيضاء لا حجم لها، تسكن فوق الأرض تستجيب لحرارة الشمس.. تستقبلها، ترتشف أشعتها في استعذاب يغزو شهود العيان حولها، فيرفعون راية الاستسلام و يخلعون ملابسهم.

غمس الطرف المدبب ببعض من لباب الخبز، الذي كان يكوره في كفه شارداً ينظر للسماء، يحس بنفحات صاعدة إليها، تلملم السحابات الشاردة، فتسطع بلون البحر، و البحر بلون السماء فتكتمل زينة اللوحة.

ومن بعيد تصطف الشمندورات تصنع حدوداً.

فرغت هي من سكب ألوانها، لمحها تنسل مكدودة، لتغوص في البحر، تضاجعه، تكبل خيوط المد و الجذر فتكتب لاسمها الخلود.

وقف كمن خرج لتوه من عراك، خطا خطوتين حذرتين فوق الصخرة القطيفية اللزجة التي صبغها العشب بلونه، احتضنها هو بباطن قدميه اللتين فلطحهما طول السير علي الشواطئ. رمي الشص بطول ساعده الأيمن ليغرق الطرف المدبب و جزء من الخيط في جوف الماء.

اعتدل في وقفته و أسند ظهره إلي يسراه كمن يشكو ألماً في جانبه، ظل واقفاً كتمثال، لكن الخيط هبط حيث تهجع هي.

نظرت إلي الخيط في شرود، تركته يداعب أهدابها قليلاً، ثم نفثت في الخيط، فذاب الطُعم و اهتزت الصخور القطيفية اللزجة، تراقص الرجل في وقفته، سحب الشص خالياً، غمس في مقدمته طعم أخر أكبر حجما، ألقي به دون أن ينال منه الضجر.

نظرت هي إلي أعلي في بطء، ثم أومأت لسمكة فضية صغيرة كانت تغفو في حناياها، جاءتها السمكة، أمسكت هي بالشص غمزت خيشومها به، أحس الرجل ذبذبات أجرت الدم في عروقه، سرت النشوة في جسده، و بحرفية ماهرة، استجمع كل خبرات الصيد بين راحتيه، وجذب البوص بشدة، طارت السمكة الفضية المعلقة بالخيط عالياً، و ارتمت خلفه فوق الصخور تحاول الفكاك. مال الرجل بجسده كله ناحيتها، انزلقت قدمه المفلطحة فوق الصخرة القطيفية اللزجة، التي أكسبتها االأعشاب البحرية لونها الأخضر.

رقة آسرة

احتوتني عينا المها وهو يحادثني. أنصت إليه، تاهت مني بوصلتي في بحريهما الرائقين.. أستطيع الآن أن أكتب ما هو الحب، أن أغزل، أن أنحت في أعتى الصخور، وأن أرقص، وأن أُعلِّم كل من في الأرض ما هو الحب.

لململت مشاعري وأنا أحسني أتكوم خلف استطالات أهدابها الحلوة. ضممته بشده إلي صدري. يتبسم في تخابث طفولي ماكر، مغمض العينين يتصنع النوم.

تضحك ملامحه كعادته عند عودتي من عملي ، يجري نحوي ، يغوص داخل صدري ، يغمض عينيه ويدعي النوم حتى أنه يرمي بذراعيه اللينتين خلفي، فأرتمي على المقعد ونغيب في جسد واحد وكأني لم ألده بعد، تروح أنامله تعبث في شعري المهوش، ألفه بذراعي، أحتويه.

قال والدمع يجتهد في الثبات خلف لمعة عينيه :

- كل يوم سأسمع صوتك صح؟

أومأت له برأسي وأغرقت وجهه بدموعي، فسألت دمعته المختبئة خلف جأش طفل .

قال وقد تجمعت ملامحه وصوته يخنقه النشيج:

- أنا لا يكفيني الخميس ونصف الجمعة، أريد أن أبقي معك .

أدرتُ وجهي، وأخذت أهدهده بين ذراعي وأنا أقول :

- مؤقتا يا عيوني.. ألم نتفق قبلاً ؟

" كيف لا تزال باقية فيه رائحة الوليد؟ هل يشم المرء رائحته ؟ تحركت عصافير قلبي، تفرمن أعشاشها داخل أقبيتي.. لم أكف عن تقبيله..كان يضمني إليه في رقة آسرة.. يبتعد برأسه عني حتى يري وجهي دون أن يسحب جسده عن صدري.. يتصفح ملامحي وصهد أنفاسي وصهد أنفاسه.. يغبش نظاراتي فيبدأ العبث بقطرات الماء ويضحك وأضحك وأنا علي جلستي أخشي الحركة حتى لا يزيد النزف كما أوصتني صديقتي الطبيبة..

ذكرني هو أن أتناول الدواء في مواعيده . ابتسمت وأخذت أجري في حلم داخل غابات كثيفة عبر حدقتيه الجميلتين ...ما كل هذا السحر ؟ لماذا لا توجد غابات لدينا ؟

أحمله فوق كتفي وأجري به ..أجري ولا أدري إلي أين ، كما لا أدري أين راح وزني ، أجري كنسمة وحين يفاجئنا المطر، يصرخ جزلا ، زخات رقيقة لينة أخذت تشتد ، تفرق خصلات شعره الأسود الفاحم .. تتسللني القطرات ممتزجة برائحته في تآلف تستقر بعد أن أغرقت وجهي بين حنايا أنفي ومسارب صدري.

من نافذتي رأيته يسير متباطئا . يقف تملأ عيناه صورتي وهو ينظر لي ، رأسي مستنداً إلى إطار الشرفة يلوح لي، أحرك كفي ألوح له ، يدخل السيارة، يجلس بجوار والده لا تكف كفه الصغيرة عن التلويح لي حتى ابتعد ت السيارة، وتاهت ناحية الخط الذي يفصل الأرض عن السماء. كانت نافذتي هي التي تبتعد إلي الوراء ، تقترب من نقطة نهاية العالم

.

من حولي ألمح الكثبان الرملية الصفراء وبقايا صخور جبلية شائهة وعرة، تطل بروزاتها عبر أطراف المدينة الجديدة. الذي يمهدون شوارعها حديثا ، في محاولات عشوائية.. سقطت عيني فوق الأكوام الرملية، فلمحتُ صورتي تتحرك وسطها في استدارات وحشية ناعمة.. تظهر لها سيقان صفراء ضخمة، تئن من أعباء أثقالها، التي وجدتها تقترب في اتجاه النافذة..

وكانت رائحة صغيري لا تزال معي.

الأعمال المنشورة للكاتبة

رأسا على عقب – مجموعة قصصية ١٩٩١

رحلة القشاش (رواية) - دار نشر الملتقى العربي ١٩٩٨

- أعيد طبعها بعنوان" لم يكن أبدا جميلا" - دار الرقي - ٢٠٠٣

دموع الجيوكندة (رواية) –دار الهلال ٢٠٠٥

رائحة الحناء (مجموعة قصصية) –دار الكتبي للنشر ٢٠١٣

بكائية الصعود إلى السماء (رواية) – عن دار ليان للنشر ٢٠١٤

كان لابد أن يرحل – مجموعة قصصية – دار النسيم- ٢٠١٨

الأعمال في انتظار الطبع:

حنين الجيوكندا

الملائكة يسرقون الجنة

الفهرس

لم يفت الأوان ________ ٥
مخاض ________ ٩
وأنا أيضا أريدك ________ ١٢
الحكيم وأنا ________ ١٨
اترك تلك النافذة.. مشرعة ________ ٢٦
الذبيحة ________ ٢٩
الروح تعزف أحيانا ________ ٣٦
اللوحة ________ ٣٨
رسول العشق ________ ٤٤
ليلة شتوية ________ ٤٦
صانع الفرح ________ ٤٨
عصفور القلب ________ ٥٠
عطفة خوخة ________ ٥٢
وقت طرقتَ بابي ________ ٥٨
السحلية ________ ٦٠
برديّة حب ________ ٦٢
صحوة ________ ٦٦
دعوة للرقص ________ ٦٨

نقش الحناء ______ ٧١
السكون والبحر.. ______ ٧٧
حوار ______ ٧٩
المرسى... ______ ٨٧
لست صيادا ______ ٨٩
بيني.. وبين ذاكرتي ______ ٩٣
خفة الهواء تعود اليها ______ ١٠٣
رائحة الجلد المحترق ______ ١٠٧
الفراشة ______ ١١٢
حديث الروح ______ ١١٤
كمين في لوران ______ ١١٨
عروس البحر ______ ١٢٦
رقة آسرة ______ ١٢٩
الأعمال المنشورة للكاتبة ______ ١٣٣
الفهرس ______ ١٣٤